محمد عبد المنعم خفاجي

قصص من الحياة

الكتاب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

حداء القافلة

سارت بي قافلة الأيام مكدودة متعبة مرهقة ، تسير لتقف ، ثم تقف لتسير .

ورأيت الحياة أطلال تاريخ ، وذكرى سعادة ، وماضي نعمة ، وبقية مجد ؛ ولكني أبصرت فيها كذلك أجمل وجه للكفاح والمثابرة والصبر وتحمل المسئولية .

وكنت كلما ترددت في السير ، أو عجزت عنه ، أنصت إلى حداء القافلة ، وإلى نداء الأمل الطموح ، فأعود إلى السير . . حتى تم لي بلوغ الغاية .

وأذكر أني عشت وحدي مع الأيام ، أجالدها وتجالدني ، وأناضلها وتناضلني ، عشتها بسمات في عبوس الحياة ، وعشت أجمل أعوامها في الكفاح والجلاد والنضال .

كنت في طفولتي رجلا ، يحمل المسئولية ، ويعي الواجب ، ويدير الفكر ، ويبني الغد قبل الحاضر .

وكنت في صباي معلما ، أضرب المثل ، وأرسم القدوة ، وأحيا لكل معنى نبيل من معاني الحياة . . .

وظل يدوي في أذني حداء القافلة ، قافلة الحياة ، وأنا أسير في نغم هذا الحداء خطى كبيرة ، ولكنها بطيئة .

حتى أذن الله بانبلاج الفجر ، وبالبسمة تعود إلى الشفاه ، وبالربيع يبعث في أيام العمر كل معنى نبيل للرواء والنضارة ، والزهر والثمر . .

وعندئذ صارت الأيام الماضيات ذكرى . .

ذكرى

حياتى الأولى أصبحت ذكرى

ذكرى فى فم الدهر ، وفى قلبى الحنون

ذكرى مضت ، ولكن لن تعود

ذكرى حلوة عطرة ، قبست شذاها من أرج الزهر فى آذار المعطر بالجمال .

ذكرى فى قلبى شذاها ، وفى أذنى صداها ، وفى فمى حلو جناها ، وفى عينى جميل رؤاها .

ذكرى ليتها ظلت معى اليوم صورها النضرة الموشاة بحلى الطهر والبراءة والصدق .

كانت تأتلق هذه الحياة فى نفسى مثلما تأتلق صفحة النهر ، ووجه البدر ، وأكمام الزهر ، فى سحر دونه السحر ، وعطر ينتشى منه العطر .

وسارت القافلة المتعبة المكدودة على حداء الأيام الجدبة فى خطى بطيئة ، ثقيلة ، كئيبة ، سوداء ، ولكنها سارت وأنا لا أدرى كيف سارت .

ومع غلظ هذه الأيام الأولى واكفهرارها آنذاك ، فقد أصبح لها وقع النشوة فى نفس الإنسان .

يالله .. أيصبح الظلام نورا ، أتورق الأشجار الجرداء ورودا وزهورا !!

إنها الحياة

لا بل إنها الطفولة

إنها البراءة فى كل شىء . . الطفولة والبراءة !! إنهما هما اللذان عكسا على هذه الحياة كل ألوان الجمال والسحر ، وكل ظلال الخير والسعادة .

يا طفولتى الجميلة . . .

أين بسماتك الحسان ؟

وأين صور قسماتك الجميلة الجليلة ؟

ليتها عاشت معى على الأيام

ولكن ذلك هو - وأيم الله المحال كل المحال . .

أنحيا الطفولة والهرم معا ؟ أنعيش الشباب وما بعد الشباب فى آن واحد ؟ أيغازلنا الصبا ويلفنا رداء الشيخوخة جميعا .

سنة الحياة ، ولن تجد لسنتها تحويلا ، أن نعيش ، ونحيا ، متنقلين من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، ومن مرحلة إلى مرحلة . . وتلك هى حكمة الإله . .

ولقد عشتها عشت أطوار حياتى كلها . .

طفولتى

نشأتى

صباى

شبابى

رجولتى

كهولتى

عشتها : ساعة بعد ساعة ، يوما بعد يوما ، عاما إثر عام ، أحمل أثقالها على ظهرى . . وأفوض إلى الله دائما كل أمرىء . .

فماذا كان ؟

هذا الوجه الجديد لهذه الذكريات الماضيات . .

القسم الأول

من الكتاب

أحداث الحياة

القرية الحزينة

قرية نائية عن المدن تقيم بين أحضان الطبيعة ، وليس لها ذكر ، ولا هي تشتهر بشيء ، الطريق إليها صعب ، فإذا ما كنت في مدينة المنصورة وأردت الذهاب إليها كان أمامك خط حديدي عتيق بطيء كان يسمى « الخط الفرنساوي » ، وهو حر في أن يتقدم أو يتأخر ، وفي أن يسرع أو يبطيء ، ومع أن المسافة بينها وبين المنصورة نحو ثمانية كيلو مترات ، فقد يقطعها في ساعة إذا شاء ، وفي نصف ساعة إذا أراد ، وفي أضعاف أضعاف ذلك الزمن إن آثر الراحة والدعة .

وعند ما تصل إليها تجد موقف القطار بينه وبين البلدة مسافة طويلة ، ثم إذا بك تسير على حافة ترعة ، حيث يطالعك في مطلعها مسجد الخفاجية ، وحوله بيوت الأسرة ، وهذه الترعة تدعى ترعة الجبادة . .

وهنا بيت الشيخ عبد المنعم خفاجي ، كما كانوا يسمونه آنذاك ، قائم وسط هذه البيوت ، على حافة الترعة ، وفي مقدمة بيوت القرية ، وحوله بيوت رابضة لأعمامي وأخوالي ، وخلفها بيوت القرية يحيط بها طرق ملتوية متربة .

والمنازل كلها ، من اللبن الأخضر لا يرى الكثير منها ضوء الشمس ، ولا يسلك الهواء النقي إليها سبيلا ، والتراب يملأ طرقات القرية ومنازلها دون حساب .

ويحيط بالقرية أرض واسعة يزرعها هؤلاء الفلاحون المكدودون ، ولكن لا لحسابهم وإلا لكانوا أغنياء سعداء ، ولكن لحساب ملاكها الأغنياء : دائرة حليم باشا ، أوطلخان بك ، أو فودة بك ، أو غيرهم ، ثم لحساب وزارة الأوقاف .. ومن ثم كانت قريتنا والقرى المجاورة لها ، التي

تعيش عيشتها ، تسمى أرض جفا لك ، وقد تقلب الجيم شينا أحيانا .

والناس يعيشون فى مشكلات متجددة ، هى من نوع المشكلات التى تقع بين المالك والمستأجر ، والسعداء منهم هم الذين يمتلكون بعض الأفدنة — القليلة خارج زمام هذه القرية الحزينة ، أو الذين يعملون فى وظيفة بجانب ذلك كله . . .

الفقر هو السائد ، والحياة القاسية هى التى تغلب على الناس ..

والفلاحون مع ذلك كله تعلو وجوههم بسمة الرضا ، ونشوة التوكل على الله .

فى القرية بعض المساجد ، يتولى أمورها وأمور الفتيا والصلاة والجماعة فيها علماء أو أنصاف علماء ، وفيها بعض « الكتاتيب » لتعليم المحظوظين من شبابها مبادىء القراءة والحساب وحفظ القرآن الكريم .

والناس يعيشون ، والحياة تسير ، والقرية الحزينة لا تمل الكفاح من أجل العيش ، ومن أجل الحاضر والمستقبل ، ومن أجل تهيئة غد أفضل لأبنائها الفقراء .

وتستعيد القرية أطرافا من نشوتها حينما يقام فيها مولد لولى من أوليائها أو حينما ينصب فيها السوق كل أسبوع مرة ، أو حينما يمر بها شاعر شعبى يردد قصة أبى زيد الهلالى أو عنترة أو سيف بن ذى يزن ، ويسمى هـــذا الشاعر الشعبى حينا « المواوى » باللغة الدارجة ، إذ اعتمد على خياله الشعرى فى التنويه بأمجاد أعيان القرية .

كذلك كانت صورة الحياة فى قريتنا « تلبانة » من أعمال مركز « المنصورة » عاصمة مديرية الدقهلية ، منذ أكثر من خمسين عاما ..

الأسرة الوادعة

والخفاجية أو الخفاجيون، أو أسرة خفاجى ، من القرية ، هم أكثر أهلها صلاحا وخلقا وأدبا وتعلما .

ينتمون إلى خفاجة بن عامر من عقيل من عامر بن صعصعة من قيس عيلان . وأصلهم على أغلب الترجيحات من خفاجة العراق الذين هاجر منهم الكثير إلى سوريا ومصر على فترات متباعدة من التاريخ ، وهم كانوا قد هاجروا إلى العراق من الحجاز ونجد .

وأغلب الظن كذلك أن خفاجى تلبانة هم أصلا من الخفاجيين الذين هاجروا من حلب إلى دمياط واستوطنوها .

كان عمى عصر خفاجى ، وعمى الغندور خفاجى يحيط منزلاهما بمنزلنا فى القرية ، وخلفنا منازل الأسرة ثم منازل أهل القرية ، وبجوارنا منزلى خالى الشيخ عبد اللطيف نافع خفاجى ، وخالى أحمد نافع خفاجى الذى توفى نحو عام ١٩٢٣

منزلنا مكون من طابقين اثنين ، واسع فسيح ، يقيم فيه أخى أحمد عبد المنعم بأولاده ، وأخى عثمان خفاجى وعائلته ، ثم زوجة أبى ، وأمى ومعها أولادها وأنا أصغرهم على كل حال .

وأسرتنا تمتاز بالصلاح والوداعة والتقوى وبالتزام مكارم الأخلاق، ومعهم بعض من قراريط كانت لهم ، وبعض أرض مستأجرة ، ويعيشون على أية حال عيشة ملؤها القناعة وترك المظاهر والترف ، والتزام البساطة فى كل حال .

كان فيهم قلة من المتعلمين وكنت أنا من جيلى ممن أسعدهم الحظ بالتعليم

فى الأزهر ومعاهده، وكانت الحياة تمضى بأسرتى الوادعة فى انتظام لا اضطراب معه ولا قلق ولا مشكلات .

يخرجون إلى الأرض لزراعتها والقيام بأمورها ، ويعودون إلى المسجد والصلاة وقضاء مطالب البيت ، وقد عرفوا بالكرم والنجدة والبر والخير والعطف على الفقراء والسعى فى الإصلاح بين الناس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .

فإن أردت أن تعلم الكثير عن هذه الأسرة الوادعة فذلك أمر سهل عليك إذا ما رجعت إلى كتاب « بنو خفاجة ، وتاريخهم السياسى والأدبى » لتعرف منه كل أخبار التاريخ ، تعرف الكثير عن الشيخ نافع الجوهرى الخفاجى العالم الكبير ، وعن حفيده نافع محمد نافع الخفاجى الشاعر المحلق، وعن الشيخ عصر خفاجى بطيبة قلبه وصلاحه وتقواه، وعن الشيخ عبد اللطيف نافع الجوهرى الخفاجى العالم المتواضع الطيب الخلق ، وعن الشيخ أبى زيد الخفاجى وابنه الغندور الخفاجى فارس الخفاجيين وعنترة شبابهم ، وعن الشيخ محمد نافع الجوهرى الخفاجى الظريف فى نفسه وخلقه ، وعن القاضى محمود عصر خفاجى ، وأخيه الهادى الخلق محمد عصر خفاجى .. ولتعرف أكثر وأكثر عن الشيخ عبد المنعم الخفاجى . رحمهم الله جميعا .

أبوان صالحان

أبواى رحمهما الله

مضيا وخلفا ذكرا طيبا خالدا

فى قريتنا الصغيرة يذكرهما الناس ، ولا يزالون يذكرونهما بالخير .

كانا مثلا طيباً فى صنع الخير وتقديمه للناس .

كان أبى — فى يسره وعسره — مشهورا بالكرم والبر وإغاثة المحتاج ،

وتضميد جراح المنكوب ، ومواساة الفقير والمسكين واليتيم وذى الحاجة ، وله فى ذلك قصص رائعة .

وكانت أمى وهى ابنة عمه ومن أسرته ، واسمها « شوق نافع خفاجى » تصنع الخير وتفعله أينما استطاعت ، وحيثما وجدت إلى ذلك سبيلا .

وكانت تقصد الفقراء فى منازلهم ، وتغشاهم فى بيوتهم ، تحمل إليهم ما استطاعت حمله من زاد ومال .

وكانت جدتى لأمى تسمى « أم الخير » وتنتمى إلى أكرم الأسر فى ديو الوسطى من أعمال مركز السنبلاوين .

ولقد أجهد الكرم أبى وأمى ، ومع ذلك ، ومع مامر بهما من شقاء وفقر ، فقد كانا مثلا كريما فى غنى النفس ، والرضا بالقضاء ، والصبر على الألم ، والارتفاع فوق مستوى الضرورة .

عرفت أبى فى غناه كريماً متلافا ، يشترى لنا ملابس العيد من مدينة الاسكندرية ، وإذا اشترى فاكهة حمل عربة كبيرة من الفاكهة حتى لايبقى منها موضع فارغ ، وإذا اشترى سمكا عبأه فى غرارات عشر أو عشرين ووضعت فى صحن البيت وفرغت فى أوان كبيرة ، حتى ليأتى الناس بأوانيهم يملأونها سمكا .

ثم عرفته فى فقره ، غنى النفس ، عزوفا كريما ، يكل الأمر لله ، يدبره كما يشاء ، وكأنما كان مثلا فى التوكل على الله ، وفى الرضاء بقدر الله .

ولقد كان من حظى أن أحيا أيام غنى أبى طفلا ، وأن أتجرع مرارة فقره وبؤسه شابا ، حتى استأثرت به رحمة الله . ومع ذلك فقد نشأت فى فقر أبى على خصال منه ، وعلى مشابهة كريمة من أدبه .

وماذا أقول عن أبوى ، لقد كانا يؤديان حقوق الله كاملة ، لايقصران

فى شيء ، وكانا يتوقان أشد التوق إلى أن يؤديا فريضة الحج ، ولكن المال أعوزهما ، وها أنذا وبعد مرور خمس وثلاثين سنة على وفاة أبى أؤدى الفريضة بالنيابة عنه ، وتؤديها معى أختى بالنيابة عن أمى .

وكانا يؤديان حقوق الناس كاملة ، فى كل حال ، وكانا فى عفتهما وشرفهما وعزتهما مضرب الأمثال .

ومرض أبى فى آخر حياته بمرض السكر ولم يكن الطب قد توصل بعد إلى علاج حاسم له ، كما حدث بعد ذلك . وكان ماهرا فى الطب القديم ، فعالج نفسه ، ولكن علاجه على أية حال نجح فى مقاومة خطر الداء بعض الوقت ، ثم أدركته منيته وهو لم يتجاوز الستين من عمره .

وعمرت أمى فعاشت بعد أبى عشرين عاما ، وقد ظلت محتفظة بصحتها حتى توفاها الله إلى رحمته .

ولم يكن أبواى يتركان أداء فريضة الفجر فى صيف ولا فى شتاء ، مع حفاظهما على نظافة ملابسهما ، وجمال هيئتهما ، وسراوة مظهرهما .

وكانت أمى ترى فى والدها العالم الأزهرى الكبير الشيخ نافع الجوهرى الخفاجى مثلا عاليا لسمعته العلمية فى عصره بين العلماء ، فوهبتنى للأزهر مثل أبيها ، ومثل أخيها الشيخ عبد اللطيف نافع الخفاجى رحمهم الله جميعاً ، وشملهم بواسع رضوانه .

تقوى وتدين وحب للعلم والعلماء ، ومساعدة للناس ، وتخلق بآداب الإسلام كاملة .. وكذلك كانا .

تعلم أبى فى مكاتب من مكاتب القرية ، فحفظ القرآن الكريم وكثيراً من كتب الحديث والفقه ، وتعلم الخط والحساب فى دائرة القريعى بالمنصورة وبدأ حياته موظفاً بها ، ثم انتقل إلى ناظر زراعة (أى مهندس زراعى)

فى دوائر أخرى كدائرة راغب باشا ، ودائرة منصور يوسف باشا ، وسواهما .

وعلت مكانته فى قريتنا علوا كبيرا .

ولقد شاهدت أهالى القرية يستقبلونه على محطة القطار الفرنساوى استقبال الأبطال ، حيث نجح فى وساطة بينهم وبين الدائرة المالكة لأطيان تلبانة والتى يتعاملون معها . ورأيتهم يأتى كل واحد من القرية بماله ويعطى كل ذلك له رهن تسوية حسابه لدى الدائرة ، ورأيت الكثير من مظاهر شرفه ومكانته عند الناس ، وأمانته الكاملة عندهم ، وائتمانهم له على أموالهم وعلى أسرارهم .

وفى فقره زار قبل وفاته بقليل القاهرة ، وكنت فيها آنذاك فى زيارة لها حيث حضرت من الزقازيق لأمر استدعى ذلك ، ولقيت أبى . . كان فقيرا ليس معه مال ، وملابسه تنم عن فقره ، فلم تكن هى الملابس التى كان يلبسها فى أيام رخائه ، وعز على ذلك فكان قلبى يبكى ، وإن كنت أتظاهر بالسرور والفرح أمام أبى صاحب القلب الكبير .

وكم كنت وأنا طفل أصحبه فى أماكن عمله فى المنتوة ، وكفر تلبانة ، وغيرهما من قرى المنصورة المجاورة لقريتنا . . وكان فى عز ويسر حال آنذاك .

ثم كم جلست معه فى أيام شظفه ، يشرب الشاى كثيرا ، وينام لغلب نهاره ، ويقوم كل ليله حتى صلاة الفجر ، ويقرأ ورده من القرآن الكريم والناس نيام ، ويطالع فى كتب الطب والحديث والفقه والتاريخ بالليل .

وكنت فى طفولتى يملؤنى الحياء منه ، لا أكاد أجلس معه على مائدة الطعام إلا نادرا ، ولا أشرب معه الشاى إلا قليلا ، ولا أنبسط بالحديث معه إلا لماما .

أما أمى فكانت صحبتى لها طويلة ، وألفتى لها وثيقة ، ترعانى طفلا وناشئا ، ومغتربا فى سبيل الدراسة ، بل حتى موظفا ناشئا ، وكانت لها حكم كثيرة ، بل كانت كلماتها كلها حكما ، وما أكثر ما كانت تزودنى به من حكم ونصائح طول حياتها .

ومضى الزمن ، وسارت الأيام ، وأصبح أبى وأمى ذكرى .

ويالها من ذكرى .

ذكرى عزيزة خالدة باقية على مر الزمان ، وماذا أقول عنهما ، وعن ذكريات حياتهما .

إن هذه الذكريات طويلة ، وكبيرة ، وكثيرة ، ولو أحببت أن أقص قصص حياتهما لاستغرق ذلك منى صفحات طوالا .

واختلف أبى وأمى ، ولا أدرى علام اختلفا ، وتزوج أبى إحدى قريباته كذلك زوجة أخرى له ، وكان لذلك أثره أيضا فى حياة البيت والأسرة ، فكان شقيقى أحمد ، وشقيقاتى حسن وزينب وهاجر ، لهم عطف أمى ، وكان إخوتى لأبى عبد الفتاح وعثمان ولطيفة لهم عطف أبى . وقد توفى عبد الفتاح شابا ، وكان فى نهاية الذكاء والحذق .

وترك هذا الازدواج بصماته على حياة أسرتنا الصغيرة .

ولما كبر أخى الأكبر أحمد ، وسلك الطريق الذى سلكه من قبل أبى فى الحياة ، وصار موظفا ، كان لى مكان الأب ، وكان عطفه يقوم فى نفسى مكان عطف الأب .

وكذلك مضت بنا الحياة ، وتقاذفتنا الأيام ، وليس لنا قوة على مواجهتها ، ولم يكن أبى قد سلحنا بأسلحة تفيدنا فى هذه المواجهة . لأنه كان يكل دائما الأمر كله لله ، يدبره بحكمته كما يشاء ، ويصرفه بإرادته كما يريد ولله فى خلقه شئون .

مولد طفل فى القرية

وفى يوم من أيام الصيف ، وخلال الحرب العالمية الأولى وأثناء فترة من فترات القلق فى تاريخ الوطن خرجت إلى الحياة (١) ، أمنية تمنتها أمى ، لأكون كوالدها عالما فى الأزهر ، وأجلس إلى عمود من عمده . . وكان ذلك فى الثانى والعشرين من يوليو عام ١٩١٥ .

ورأيت الحياة آخر أشقائى ، وكان قد سبقنى إلى الوجود إخوة وأخوات ليسوا بالكثير .

لا أعرف شيئا من هذا الميلاد ، ولا أدرى كيف كان استقبال منزلنا الريفى المتواضع فى القرية لهذا الميلاد .

ولا شك أن أمى وأبى وجدتى لأمى السيدة « أم الخير فودة » وأخواتى وإخوتى ، وأخوالى عبد اللطيف وأحمد خفاجى ، قد فرحوا لهذا الميلاد .

ومضت بى الأيام طفلا مدللا .

أبى له وظيفته وله أطيان زراعية يزرعها له « مبروك » هذا الرجل السودانى النحيف الخفيف هو وأولاده ، وأمى تعود إلى أشياء من مال أبى ، وأشياء أخرى من مال أمها الصالحة الحاجة « أم الخير » .

وطالما شاهدت من ترف حياتنا ونعيمها الكثير وأنا طفل صغير .

وتمضى الأيام وتسير يوما بعد يوم ، وسنة بعد أخرى .

وشب الطفل حتى إذا مامضى عليه عام أو يزيد أطاف بالقرية حريق مروع دمر أكثر مبانيها وأحرق كثيرا من ثروتها ؛ وحظ هذه القرية

---

(١) كان ذلك يوم الخميس عاشر رمضان ١٣٣٣ هـ - ٢٢ يوليو ١٩١٥ .

تعس دائماً ، ولقد سبق أن أصابها حريق آخر نحو عام ١٩١٤ (١) .

نشأ فلم يجد حوله إلا جوا جميلا أكسبته الطفولة ومرحها جمالا على جمال ، ولم يعرف شيئا إلا منازل الأسرة وما يحيط بها ، وهذه الماكينة التى تطحن فيها الحبوب ويملكها الشيخ عصر خفاجى ، وكان الذهاب إلى تلك « الماكينة » حبيبا إلى نفسه ليمرح ويلعب ويأكل « الترمس » اللذيذ ، وكانت الطواحين قبل هذه الماكينة تدار بالبقر والمواشى .

ولكن العناية الصحية فى بيئة القرية قليلة جدا ، فحلاقو القرية هم مرجعها فى العلاج ، وقل من يسافر إلى المنصورة للعلاج الخاص عند طبيب من الأطباء .

والخرافات تملأ أذن الطفل فى كل مكان وفى اللعب والسمر ، وحين الأكل والنوم وفى غير ذلك ، فالقصص التى يسمعها ملأى بالغيلان والعفاريت ، ورجال السحر لهم مكانتهم فى بيئة القرية وعند أهليها .

وشاهد الطفل الصغير حفلة زفاف أخيه الأكبر أحمد افندى وهو فى الثانية والنصف من عمره وعلق بذهنه أطياف من صورها وذكرياتها ، وكانت العروس هى بنت عمه الشيخ « عصر خفاجى » شيخ القرية وأول وجهائها وأعيانها ، وكان له ثروة كثيرة وأطيان واسعة قريبة من القرية .

ثم مضت به الأيام فرأى الثورة المصرية تشتعل عام ١٩١٩ انتصارا لفكرة الحرية والاستقلال ، وكان لها ولزعيمها « سعد زغلول » دوى كبير فى كل مكان حتى فى تلك القرى الصغيرة النائية ، ومن أجدر من مصر بنعمة الحرية والاستقلال .

---

(١) كما أصيب نحو ثلثها بحريق آخر فى يونيو سنة ١٩٤٩ .

وفى نحو عام ١٩٢٠ شق الطفل الصغير طريقه إلى مكتب « الشيخ عبد اللطيف صيام » فى القرية ليتعلم القراءة والكتابة .

جلس الطفل على مقعد عال مع قريبه « الشيخ صادق بدوى » والأطفال أمامه على الأرض يموج بهم المكان ، وكان « الشيخ صادق » نقيبا للمكتب وكان المقعد مقعد الشيخ جلس عليه ، وجيء له بلوح يكتب فيه ، فمكث مدة قصيرة ثم رمى اللوح وخرج ذاهبا إلى البيت ، رمى اللوح لأنه هذا اللون من الحياة الذى لم يألفه لم يكن يعجب الطفل الصغير آنذاك .

ولكن والده وأمه أجبراه على أن يعود إلى مكتب جديد لفقيه اسمه « مصطفى البديوى » فى القرية ، ومكث فيه أياما حتى تحولت كراهيته للمكتب إلى حب وبغضه إلى رغبة ، وكان نقيب المكتب (العريف) هو الشيخ محمد على حسن ، ولعل ذهابه إلى هذا المكتب إنما كان بعد قفل المكتب الأول ، ثم أدى به المطاف إلى مكتب الشيخ أبو العينين ، ثم إلى مكتب آخر لفقيه اسمه « الشيخ سباق » فى القرية ، وكان رجلا يناهز الخمسين هاجر والده من صعيد مصر أيام الثورة العرابية ، ولعله كان من مركز أبى تيج ، وكان معه زوجته وطفلها « سباق » ، واستقر بهما المقام فى تلك القرية ثم توفيا وكفل الابن الصغير عائلة من عائلات القرية وعلموه فى أحد مكاتبها ، فشب حافظا للقرآن ، ثم تزوج وأقام فى بيت زوجته ، ورزق منها بنتين توفيتا بعد ذلك بحين ، وكان الشيخ يقول : إن والدته فتحت دكانا صغيرا تبيع فيه الخيط وسواه .

كان المكتب فى بيت منزل لأحد أهالى القرية واسمه « إبراهيم خليل » ، وكان قبل ذلك مخزنا له وبجوار المكتب حجرة صغيرة لامرأة طاعنة كانت لها طاحونة صغيرة وتبيع الكحل وسواه للنساء .

وكان الشيخ سباق مشهورا بالقسوة والشدة فى تعليم الأطفال ، كان

جريد النخل سوطه ، و (الفلكة) الشديدة التى تحز فى رجل الأطفال ساعده الجبار المرهوب ، وكان الأطفال جميعا يجلسون على الحصير .

دخل الطفل المكتب ، ليكمل معرفته للقراءة والكتابة وليحفظ القرآن الكريم ؛ وكان الشيخ يعلمه بنفسه كل يوم مدة صغيرة ، يكتب له اللوح ويقرأه أمامه وينطق بحروف ليعلمه كيف يقرؤها ؛ وكان يجلس الشيخ على باب المكتب وبيده عصا طويلة ، ويستدعى الأطفال واحدا واحدا لأخذ الدرس ثم يأمرهم بالانصراف إلى أماكنهم لقراءته وحفظه . وكان الأطفال يذهبون إلى المكتب بعد طلوع الشمس بنحو ساعة ، ويجلسون فيه حتى الظهر ، ثم يأخذون (فسحة) نحو ساعة يتناولون فيها غداءهم فى منازلهم أو فى المكتب ، ثم يعودون الواحدة بعد الظهر إلى نحو الرابعة مساء .

وكان كل طفل يسير فى دراسته مستقلا عن لداته وأترابه ، لايجمعهم إلا المكان والشيخ والعريف والواجب والعقاب البدنى الأليم ، وكانت زوجته امرأة رحيمة يفزعها هذا الضرب المبرح فتجرى متوسلة للشيخ أن يرحم أطفاله ، وكان الشيخ أو سيدنا لايغادر المكتب إلا لأداء الصلاة أو لعذر قاهر ، فينوب عنه أكبر تلاميذه سنا ، ولم يكن التلاميذ ينعمون بالهدوء واللعب إلا فى تلك الفترات التى يغيب فيها الشيخ عن المكتب . وبعكس « سيدنا » كان « الشيخ أبو العينين » صاحب المكتب القريب من مكتبه . وتوفى الشيخ سباق أخيرا عام ١٩٣٠ .

وتدرج الطفل من الهجاء ، إلى معرفة قراءة وكتابة الأسماء ، إلى أسماء الله الحسنى . ثم بدأ فى حفظ القرآن الكريم ، وكأنما وهبه الله ملكة جديدة وحافظة سريعة ، فسار فى حفظ القرآن سيرا سريعا لاوناة فيه .

لم يكن الطفل يسعد كثيرا بالحياة اللهم إلا فى هذه الليالى الجميلة التى يأخذه فيها والده معه لحفلات عامة فى مقر عمله ، وإلا فى ليالى القمر حيث

يلعب أمام منزله مع الأطفال ، وإلا فى الليالى الجميلة التى يجلس فيها مع والدته وأخوته وأقاربه ليسمع قصص الحياة .

وكان الشيخ سباق صعيديا غليظا هاجر إلى قريتنا ، وتزوج فيها ، وعاش بين أهلها .

وقد ، أخذت عنه الحرص على أداء الواجب وتحمل المسئولية ، وإلا تعرضت لعصاه الغليظة القاسية وتركت اللعب إلى الحرص على الصلاة ولزوم المسجد ، وحفظ القرآن الحكيم .

وفى هذه الفترة كثيرا ما كنت أثناء اللعب أصاب بكسور فى يدى اليمنى ، فأقضى وقتا طويلا ويدى تحيط بها « الجبائر » ، وأضطر إلى الاستعانة بيدى اليسرى فى الكتابة حتى صرت أكتب بكلتا يدى معا ، أى « أعسر يسر » .

وفى خلال تلك الفترة ، أو فى آخرها أصبحت أدرك كثيرا من تطور الحياة فى قريتنا الصغيرة ، وفى أسرتنا الوديعة .

ولست أنسى يوم تخرجى من الكتاب حيث عقد لى امتحان عام فى القرآن الكريم شهده عم أبى الشيخ عصر خفاجى عميد أسرتنا وغيره ، وامتحنت فى القرآن الكريم امتحانا قاسيا نجحت فيه بتفوق كبير . . وانتهت حياتى من الكتاب ، وتخرجت منه موفور الحظ من النجاح . وكان ذلك فى ربيع عام ١٩٢٦ .

الشيخ سباق عبد الرحمن (١٨٧٠ - ١٩٣٠)

كان الشيخ سباق عليه رحمة الله أستاذنا الأول الذى تتلمذنا عليه ، وتخرجنا على يديه ، وربانا فأحسن تربيتنا ، وعودنا أن ننظر إلى الحياة نظرة جد واهتمام وعمل وحرص على أداء الواجب . . وكان كذلك أستاذ عدد كبير

من أبناء قرية تلبانة مركز المنصورة ، ممن تعلموا عليه ، وشقوا طريقهم فى الحياة بجد ومثابرة وجهاد .

كان رحمه الله أستاذ أول مدرسة تعلمنا فيها ، وهى مدرسة القرية الأولى التى كان له الفضل فى إنشائها وتعهدها ، ونسبت ، إليه وكانت تسمى مدرسة الشيخ سباق ، أو مكتب الشيخ سباق ، .

وكان رحمه الله يعاملنا بشدة ، ولا يهادننا ، ليربينا على القوة والاعتماد على النفس . ومع ذلك كله فقد كان لين الجانب رحيم القلب وديع النفس زاهدا قانعا ، يفتخر بتلاميذه إذا ما أصابوا شيئا من النجاح فى الحياة ، ويذكرهم بشىء من الفخر والإعجاب .

كان رحمه الله يعلمنا فى مدرسته القراءة والكتابة ؛ وعلى يديه حفظنا القرآن الكريم ،وتلقينا جانبا قليلا من الحساب . . وهذه هى الثقافة الأولى التى كانت سائدة فى قرى مصر قبل إنشاء المدارس الأولية . . وهى الثقافة التى خرجت جيلنا والأجيال العديدة التى سبقتنا . . .

ونحن مدينون له بدين فادح لا ننساه طول حياتنا . . تزوج من أسرتنا ، ولم يترك أبناء ، وإنما ترك بنتين توفيتا بعده بقليل . فعليه رحمة الله ، وسلام عليه فى الصالحين الأبرار .

ماذا بعد الكتاب ؟

كان الشيخ سباق رحمه الله أول أساتذتى وكنت أكن له كل تقديرى حتى توفاه الله بعد تخرجى من مدرسته بسنوات طوال .

وبعد ذلك .

عقد مجلس حضره أبى وأمى وأخواتى .

أمى تصر على ذهابى إلى الأزهر .

أبى يرى أن حالتنا المالية عادت إلى القهقرى وهى لا تسمح باغترابى وما يتبع هذا الاغتراب من أعباء مالية ، وإذا كان لابد من التعليم فلأذهب إلى المنصورة لأتعلم فى مدارسها ، وهى جد قريبة من قريتنا .

وكانت أمى شجاعة لا تعرف اليأس ولا الملل ولا الاستسلام .

وقالت لأبى : « إنى أنا الذى سأتحمل كل أعباء تعليم محمد » .

وحسم الأمر .

وأخذت المفاوضات تدور بعد ذلك .

مع ابن خالى الشيخ نافع محمد نافع الخفاجى الطالب بآخر المرحلة الثانوية بمعهد الزقازيق الدينى ، وهو أحد معاهد الأزهر الشريف .

ومع الشيخ عبد المنعم الموافى الطالب بالسنة الأولى الثانوية بمعهد الزقازيق .

لأجل الالتحاق بالمعهد .

وجاءت استمارة الالتحاق وملأناها . المذهب ماذا يكون ؟

ورد ابن خالى .المذهب حنفى لأن القضاة كلهم أحناف . وكان ما أراد .

وانتهى الأمر وقبلت بالسنة الأولى الابتدائية بمعهد الزقازيق الديني عام ١٩٢٧ - ربيع الأول ١٣٤٦ هـ ، بعد امتحان في القرآن الكريم وامتحان طبي . . وصرت طالبا من طلابه .

وسافرت إلى الزقازيق . لأكون مع الشيخ عبدالمنعم الموافي في المسكن والمعيشة ، وتحت إشرافه .

وضمنا مسكن العزازي في الحسينية بالزقازيق ؛ وكنا أربعة : عبد المنعم الموافي - محمد السيد على - محمد على حسن طرباي - أنا - ثم جاء طالب آخر هو أحمد عبد الله عنتر .

عبد المنعم الموافي في الأولى الثانوية ، وهو شاب مدلل لأنه وحيد أمه، وأبوه توفي . . وكان محمد على حسن طرباي مثله في الأولى الثانوية .

ومحمد السيد على أحد أقاربنا وهو طالب بالسنة الثالثة الابتدائية .

أما أنا فطالب بالسنة الأولى الابتدائية ، وكذلك كان أحمد عنتر .

وانتظمت في الدراسة ، وحضرت دروس العلم على الاساتذة .

الشيخ الفحيل في النحو .

الشيخ الطيب النجار في الإنشاء .

الشيخ السبكي في الأخلاق .

وغيرهم ممن أنسيت أسماءهم من الأساتذة في الفقه والتاريخ والمطالعة والحديث والتفسير ومادة « الأشياء الخ » .

وفي الفقه الحنفي كنا ندرس كتاب نور الإيضاح .

وفي الأشياء والحديث والتاريخ درسنا كتبا من تأليف بعض الأساتذة .

وفي النحو كتاب « قواعد اللغة العربية » لحفني ناصف .

وفى المطالعة كتاب كليلة ودمنة ، ولا أنسى درس المطالعة الذى كان الأستاذ يشوقنا إليه بما يجيد من حركات المتحاورين .

ولا زلت أذكر كيف كنت فى الأيام الأولى من بدء الدراسة أجلس إلى الفصل ، وذهنى مشرد ، لأنه يتجه إلى قريتنا وإلى أسرتنا وإلى أبوى .

ثم بدأت أستمع إلى دروس النحو وأنا لا أعرف شيئا مما يقول الأستاذ ، وكأنه يقول طلاسم من الكلام ، لا أفهم شيئا مما يقول ، ويسألنى الأستاذ فلا أستطيع الإجابة ، واستمر الأمر بى على ذلك المنول لم يفتح الله على بفهم شىء . وأخيرا وبعد أكثر من شهرين بدأت أفهم ما يقول الأستاذ من قواعد النحو . ولا أذكر أن الفقه كان خيراً من النحو فى هذا المجال .

ومضت بى الأيام وأنا أواصل الدراسة ، وقد فتح العلم لى أبوابه وحمدت الله على ذلك .

ولا أنسى كيف قدمت أختى الكبرى «حسن» لتزورنى فى الزقازيق مع زوجها ، وكيف ذهبت معهما إلى البلدة التى يعمل فيها والدزوجها المرحوم «حسن عيسى» وهى طوخ القراموص - مركز أبو كبير ، وكانت هذه القرية من أملاك الأمير عمر طوسون باشا » .

وفى الزقازيق تعرفت لأول مرة على زميلى الطالب محمود فرج عبدالحميد العقدة » ، وكان فى نهاية الذكاء والألمعية ، وعلى أصدقاء آخرين منهم بيومى مصطفى ومحمد شلبى وسواهم .

وانتهى العام الأول ونجحت فى الإمتحان ، وكان نجاحى بتفوق ، لحمدت الله ، لأن أمى كانت تقول : إن رسبت فى الامتحان فستحرم من الدراسة ولكنى نجحت ، ونجحت بتفوق كبير .

وانتهت الإجازة ، وعدت إلى المعهد وإلى الفرقة الثانية الابتدائية ، وانتظمت فى الدراسة ، وثابرت على الدروس .

الكتاب المقرر فى الفقه كتاب القدورى

وفى النحو كتاب قواعد اللغة العربية لحفنى ناصف

والأشياء كتاب من تأليف بعض الأساتذة ولعله الشيخ عبد اللطيف السبكى .

والتاريخ الإسلامى كتاب للشيخ أبو العيون ورخا بك المفتش بالمعاهد الدينية وغيرهما .

والمطالعة كليلة ودمنة أيضا . .

والإنشاء الشيخ الطيب النجار الذى صار فيما بعد عضوا فى جماعة كبار العلماء وأستاذ فى كلية أصول الدين ، وتوفى رحمه الله منذ عدة سنوات .

وكان شيخ المعهد الدينى بالزقازيق آنذاك هو المرحوم الشيخ إبراهيم الجبالى وهو علم من أعلام الأزهر ، وقد تولى رياسة التفتيش فى الأزهر ، وتولى عمادة كلية اللغة العربية فيما بعد عام ١٩٤٧ ، وكان عضوا فى جماعة كبار العلماء ، وكاتبا من أعظم كتاب مجلة الأزهر (نور الإسلام) فى أوائل إنشائها .

وكان شيخ الأزهر آنذاك هو الشيخ محمد مصطفى المراغى ، ثم أعقبه الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى رحمهما الله .

وتوالت أيام دراستى فى الزقازيق ونجحت فى امتحان السنة الثانية بتفوق كبير كذلك

وقضيت الصيف فى قريتى مكانها جداً ، وفى إجازة الصيف لازمت ابن خالى الشيخ نافع محمد نافع الجوهرى خفاجى الطالب بالقسم العالى بالأزهر الشريف ، وكان شاعرا مجودا ، وكنت أقرأ معه كتب الأدب ودواوين الشعر ، وألازمه وقتا طويلا ، ومما قرأته معه ديوان البحترى ودواوين أخرى .

وكان العيب فيما نقرأ من كتب هو طبعاتها القديمة المطبوعة بطريقة عتيقة وبدون شكل ، مما يدع الشاب الناشىء لايستفيد منها ، ولايهتدى إلى أفكارها ومعانيها ومضامينها بسهولة .

ولكنى بدأت الطريق على أية حال ، وفى الصيف أيضا كنت أساعد أبى فى أعمال الزراعة بقدر ما أقدر وما أستطيع ؛ وكان جهدى فى ذلك جهدا خفيفا لايغنى ولايسمن من جوع ، ولكنه جهد على أية حال ..

وأذكر أن والدى خصص جانبا من الأرض لى ولإخوتى لنزرعها ونأخذ محصولها كجزء من المساعدة لنا ، وكنت أقوم فى الصيف بجوانب خفيفة من جوانب الزراعة ، أما الأعمال الشاقة ؛ فقد كنا نستأجر من يقوم بها ..

وفى هذا الصيف وظف أخى الأكبر أحمد فى وزارة الأوقاف فى أعمال تتصل بحسابات المزارعين ، وكانت وظيفته رئيس الخزانة فكانت وظيفته عونا كبيرا للأسرة ، وقد كانت لمساعدته لى الأثر الفعال الضخم فى مواصلة تعليمى .

وفى السنة الثالثة الابتدائية واصلت دراستى ، بجد ومثابرة ..

وكان سكنى كما هو مع الشيخ عبد المنعم الموافى الطالب بالقسم الثانوى بالأزهر ، والذى انقطع عن الدراسة بعد ذلك لرسوبه من جانب آخر ،

ولا يتهيأ له من يقوم بعونه على الأعباء المادية لحياة أسرته ولحياته الدراسية من جانب آخر .

كما انقطع عن الدراسة أحمد عنتر ، وكذلك محمد السيد حسن الذى كان فيما مضى مؤنسا لى فى ملازمتى للبيت المطالعة والمذاكرة ، وكان كثيرا ما يقرأ ابن الفارض، فكنت أستفيد من ذلك .. وكان قد أصيب بمرض عصبى أحزننا عليه ، وكان وحيد والديه ، وأدى كل ذلك إلى تركه للدراسة، وانتقل الشيخ محمد إعلى حسن طربای إلى القاهرة فى القسم العالى ، ثم فى كلية أصول الدين ، ولم يبق من قريتنا فى المعهد سواى .

وكنا نسكن فى بيت العزازى فى الحسينية فى الزقازيق ، أو فى بيت « أبو عفارة » وهما بيتان متجاوران ، وكان « عبد الحميد العزازى » ابن الشيخ العزازى طالبا معنا فى المعهد ، وكان له أخ هو محمد العزازى دخل كلية الفنون الجميلة فيما بعد ولا أدرى أين هما الآن ، وكانا من قرية ابن سلام القريبة من قريتنا ، وكان المنزل منزلهما كما كان من زملائنا فى الدراسة طالب من بلدة « الربع » مركز السمبلاوين ، وكان محبا للأدب والشعر ، وكان كثير الملازمة لديوان « الشفق الباكى » لأبى شادى .. وكنت أطالعه معه كثيرا ، كما كان من زملائنا فى الدراسة الشيخ الأحمدى العوضى ، وأخوه منصور وكانا من قرية قريبة إلى قريتنا ، وكان منصور شاعرا أديبا متذوقا للشعر كثير القراءة لشعر شوقى الذى كنت أطالع معه فيه .

وكان من أساتذتنا فى المعهد فى هذه السنة الشيخ العالم الفاضل محمد الطنطاوى رحمه الله ، وكان كتابه فى البيان مقررا علينا وكان يدرسه لنا، كما كان يدرس لنا النحو فى « شرح ابن عقيل الشيخ مصطفى الصاوى رحمه الله ..

والشيخ الطنطاوى عمل مدرسا فيما بعد فى كلية اللغة العربية ، وكان

من خيرة أساتذتنا فيها ، وقد كتبت عنه فصلا فى كتابى « نداء الحياة » ، وكان من أعلام العلماء فى اللغة العربية ، وكتابه « نشأة النحو » مشهور .

أما الشيخ الصاوى فكان شيخا لبقا أديبا ، وكان اجتماعيا بكل معنى الكلمة ، وقد نقل فيما بعد إلى القاهره مدرسا فى معهد القاهرة الثانوى الأزهرى ، وأصدر صحيفة أسبوعية عنوانها « البشير » خلال الحرب العالمية الثانية ، وكنت أكتب فيها بعض المقالات ، وأنا طالب فى كلية اللغة العربية فيما بعد ، وله كتاب أصدره بعنوان « تصحيح الشخصية الشعبية » وكتاب آخر فى العروض وأذكر أن اسمه العروض الوافى « وقد كتبت مقدمة طبعته الثانية بعد وفاة هذا الأستاذ ، وفيها أرخت له وأبنت عن معالم شخصيته ، وأبناؤه ناجحون اليوم فى حياتهم العامة كل النجاح .

وفى أثناء هذه السنة أقام المعهد حفلا أدبيا فى مناسبة من المناسبات وكان يشرف على هذه الحفلات الأدبية فضيلة الشيخ مصطفى الصاوى ، فقدمنى فى إحداها حيث ألقيت كلمة أدبية قوبلت باستحسان من الجميع ، ودوت شهرتها فى كل مكان ، وأصبحت موضع حديث الطلاب والأساتذة.

وأذكر أنه حدث بعد ذلك سوء تفاهم بينى وبينه ، وطلب معاقبتى ، وعاقبتنى إدارة المعهد فعلا بحرمانى من الدراسة أسبوعا أو عشرة أيام على ما أذكر . وكان السبب فى ذلك أنه بلغه أننا لا نستجيد شرحه لدروس النحو فى كتاب . « ابن عقيل » رحمه الله .

ونجحت فى امتحان الثالثة بتفوق كذلك وقد قضيت الإجازة ما بين مساعدة أخى فى أعماله الحسابية ، ومساعدة إخوتى فى أعباء العمل الزراعى ، وملازمة ابن خالى فى قراءاته الأدبية والشعرية ، وكان مصابا بمرض عضال لا يستطيع معه المشى وحيدا ، ولذلك كان يشعر دائما بمرارة وحزن عميق ويصور كل ذلك فى شعره ، وأذكر أنه نجح فى امتحان الشهادة العالمية

هذا العام ، وكان لذلك رنة فرح فى نفسه وفى نفوس جميع أفراد أسرتنا ، واصبح بذلك عالماً من علماء الأزهر الشريف ، لكنه كان يسعى لعمل أو وظيفة ، ولم ينل بغيته من ذلك فشعر بحزن عميق ، وتضاعف الألم فى فى نفسه ، وقد ترجمت له فى كتاب « بنو خفاجة » وتاريخهم السياسى والأدبى » ترجمة ضافية ، رحمه الله تعالى ، ولا شك أنه كان من أوائل أساتذتى الذين أفدت منهم ، وانتفعت بتوجيهم .

وفى السنة الرابعة الابتدائية واصلت الدراسة وأفدت من الأساتذة ، وكانت حياتى فى الدراسة قد أصبحت أكثر خصبا ومثابرة ، وكان من خيار رفقائى فيها محمود العقدة ، ومسعد الخزرجى الذى صار بعد تخرجه من كلية أصول الدين واعظا ، وتزوج شقيقتى السيدة هاجر خفاجى ، ثم توفاه الله إلى رحمته عام ١٩٦٧ ، ومنهم : بيومى مصطفى ، ومحمد شلبى ، وسواهما .

وأذكر أننا نحن الثلاثة العقدة ومسعد ألفنا جمعية أسميناها باسم جمعية الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وكان لها نشاط كبير فى محيط المعهد وطلابه .

وانتهيت من امتحان الشهادة الابتدائية وجاءت نتيجتى الأول فى معهد الزقازيق والثانى فى القطر المصرى كله وهى نتيجة استبشرت بها خيراً كثيراً وهنأنى عليها جميع الأصدقاء والزملاء وجميع أساتذة المعهد .

ولا أنسى شخصية شيخ المعهد بعد الشيخ إبراهيم الجبالى ، وكان هو الشيخ عبد الحكم عطا ، وكان من كبار الشيوخ ومن العلماء الأفذاذ ، المحافظين على مناهج الثقافة القديمة فى الأزهر ، وكنا نذاكر دروسنا قرب الامتحان فى المعهد كل مساء ، ويجىء لفيف من المدرسين ليشرفوا على توجيهنا ، وليجيبوا عن كل شبهة أو سؤال لنا ، وكان الشيخ عبد الحكم يجىء بنفسه فى المساء ويجلس معنا ، ويحضنا على المذاكرة والاجتهاد ،

كما كان يمر بفصول الدراسة فى الصباح ، وبعنابر نوم الطلبة فى الداخلية فى كل ليلة . . وكان حركة دائبة ، وقد توفى إلى رحمة الله ورضوانه بعد ذلك بأعوام .

العيد المقبل

ولازلت أذكر قصة من قصص حياتى الأولى آنذاك .

قريب أجازة العيد

وبدأ زملائى يسافرون .

وبقيت وحدى منفرداً فى منزل « أبى عفارة » ، أنتظر رسالة من أخى بمصاريف لى السفر وخلافه .

وترددت على المعهد ، ولكن الرسالة لم تصل .

واستبد بى الضيق والحزن ، لاقتراب العيد ، ولوحدتى ، ولتفكيرى المتصل فى كل ذلك .

وأصبح الصباح ، وأنا متفائل بأنى حينما أذهب إلى المعهد سأجد رسالة تحمل شيكا أصرفه ، لأصرف منه على مايتصل بسفرى .

وأخذت أرتب أمتعتى فى الحجرة ، وهى أمتعة خفيفة ، وفوجئت بنصف جنيه فى الأمتعة ، لا أدرى من أين جاء ، وقبضت بيدى عليه : وكان لمثل هذا المبلغ فى أيام الأزمة الطاحنة ، عام ١٩٣٠ وما بعده ، قيمة كبيرة ، وأخذته ، وسددت منه ديونى ، واشتريت منه حاجيات السفر ، واشتريت الصحف اليومية التى توقف شرائى لها ، وقطعت تذكرة السفر ، وبقى معى منه مبلغ آخر ، وسافرت إلى البلدة راضياً مبتسماً ، وكنت فى العيد بين أهلى .

ولولا هذه المصادفة لما كان هناك أمل فى حل لهذه المشكلة . . . وحمدت الله . .

وكان لمفاجأتى لأهلى بالحضور دون مايساعد على ذلك فرح فى نفس أمى وإخوتى مابعده فرح . . وكانت أمى دائما تفكر فى أمرى ، لاغترابى ، لصغر سنى ، ولأنه ليس معى أحد من قريتنا يتعاون معى فى تخفيف آلام الاغتراب من أجل العلم .

وما أكثر ماكانت تبيت قلقة ، لأن بينى وبينها مايزيد على مائة وخمسين كيلو مترا ، وليس هناك من يوصل أخبارى إليها ، ولا أخبارها إلى .

ولشد ما شقيت من أجلى .

رحمها الله . .

فى الدراسة الثانوية

١ — وبدأت الدراسة الثانوية فى السنة الأولى الثانوية فى أواخر صيف عام ١٩٣١

ندرس العروض على الشيخ العيسوى فى كتاب الكافى .

والصرف والنحو فى كتاب « أوضح المسالك » .

والإنشاء والأدب والبلاغة والحساب والهندسة والطبيعة على أساتذة نسيت أسماءهم .

وندرس التاريخ مع الأستاذ عبد العزيز عبد الحق وكان خريج المعلمين العليا وكان أستاذا فى التاريخ بحق . وكانت شهرته بأنه يميل إلى الآراء الجديدة والفهم العقلى ، وأنه لايتقيد بالنصوص وكان والده من الأتقياء فى مدينة الزقازيق . وقد صار فيما بعد وكيلا لإدارة البحوث فى الأزهر ومدرسا للتاريخ فى كلية أصول الدين ، وله مؤلفات قيمة ، وقد سافر إلى السودان ونيجيريا فى بعثات دراسية كان مشرفا فيها لمصر والمصريين ،

ويجيد اللغة الإنجليزية إجادة تامة ، وقد ظفر بجائزة من جوائز الدولة عام ١٩٢٥ فى بحث قدمه عن رسالة الأزهر . وقد اشتهر بامتلاكه لمكتبة حافلة .

ولى معه قصة طريفة فى هذا العام نفسه . . فقد عقد لنا امتحانا شهريا ، وكانت الأسئلة بعيدة عن الكتاب المقرر فى التاريخ القديم ، وقد أجبت عنها إجابة عقلية فى الفصل . وصحح أوراق الامتحانات ووزعها فى الفصل ماعدا ورقتى ، فسألته عنها ، فنهرنى بشدة ، وقال لى اسكت إنت واخد إجابتك منين . . فسكت ، ولا أعرف ماذا كان يقصد ، ولم أسأله بعد ذلك عن هذا الموضوع مرة أخرى .

وكان مدرس الجغرافيا هو الأستاذ عبد الخالق سليمان وهو خريج المعلمين العليا أيضا ، وكان من قرية « كفر الحصر » القريبة من الزقازيق وكان أبوه ثريا ، وقد فوجئنا بأن الأستاذ عبد الخالق دعانا يوما إلى منزله فى كفر الحصر دعوة عامة كبيرة .

ولا أذكر أستاذ الحساب والهندسة والجبر ، ولا أستاذ الفقه الذى كنا ندرسه فى كتاب « ملتقى الأبحر على مجمع الأنهر » فى الفقه الحنفى .

وهكذا عشنا فى جد ومثابرة فى الدراسة ومضت السنة بخير وكفاح متواصل وجهاد من أجل التعليم ، وتحمل لأعباء الأزمات المالية العنيفة .

٢ — ومضت السنة الثانية الثانوية كذلك والثالثة الثانوية ، التى نلت فيها شهادة الكفاءة بترتيب متفوق على طلبة المعاهد الدينية فى جميع أنحاء القطر .

وفى هذه السنة انتقل زميلى محمود العقدة إلى معهد القاهرة الثانوى ، وبقيت منفردا من أصدقاء كثيرين .

وفى السنة الرابعة الثانويه والخامسة الثانوية جدت الأزمة الحادة فى الأزهر بسبب الخلاف بين السراى والأحزاب السياسية فى مصر حول مشيخة الأزهرومن يتولاها: أهو الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى شيخ الأزهر آنذاك ، أم الشيخ المراغى الذى كانت تؤيده الأحزاب وكان له أنصار كثيرون داخل الأزهر ، وكانت تنظيمات الطلبة ولجانهم تنادى بإقصاء الشيخ الظواهرى عن مشيخة الأزهر لتدخله فى السياسة ، وكانت لجنة معهد الزقازيق الطلابية من أقوى هذه التنظيمات وكنت وكيلا للجنة ، وكان الشيخ محمود النواوى أستاذ الفقه لنا فى السنتين الرابعة والخامسة الثانويتين مستشارا للجنة، وطالما نظمنا المظاهرات والإضرابات الطلابية، وأصدرنا القرارات، ونشرت الصحف أخبارنا بالتفصيل فى صفحاتها الأولى . وكنت آنذاك أنشر المقالات الأدبية فى الصحف اليومية .

ولا أنسى الشيخ منصور رجب مدرس الإنشاء لنا فى هاتين السنتين، وقد صار فيما بعد مدرسا فى كلية أصول الدين .

وكذلك الشيخ محمد البحيرى أستاذ البلاغة لنا فى السنتين نفسيهما .

وانتصرت إرادة الطلبة وأقصى الشيخ الظواهرى من مشيخة الأزهر(١) وحل محله الشيخ المراغى ، وكرمه الازهر فى حفلة كبرى ، دعيت لتمثيل معهد الزقازيق الدينى فيها ، وكانت قد أقيمت فى سراى المعرض بالجزيرة ، وتحدث فيها كبار العلماء والأدباء والشعراء ، وحضرها رؤساء الوزارات المصرية ، وحال ضيق الوقت دون إلقائى لكلمتى فى الحفل ، وقد ناب عن طلاب الأزهر جميعا الشيخ أحمد حسن الباقورى فى إلقاء كلمتهم ، وكان آنذاك من طلاب الأزهر ، ورئيسا للجنة العامة للطلبة التى تزعمت حركة الأزهر

---

(١) ولد رحمه الله عام ١٨٧٨م ، وتوفى فى ١٣ من مايو عام ١٩٤٤ ، وكان من تلامذة الإمام محمد عبده (المتوفى فى ١٢-٧-١٩٠٥)

وكان شيخ المعهد الدينى بالزقازيق فى السنوات الأولى من دراستى الثانوية هو الشيخ السرتى ، ثم تولى مشيخته الشيخ محمود أبو العيون وكان من جلة العلماء ، وقائد طلبة الأزهر فى الثورة المصرية عام ١٩١٩ ضد الاحتلال الإنجليزى ، وكانت له مواقفه المشهورة الخالدة .

وكان الشيخ أبو العيون يقدرنى ويولينى ثقته ، وكنت وكيلا للجنة الطلبة ثم رئيسا لها وكنت أتناوب الخطابة فى الاجتماعات العامة مع زميل لنا هو محمد متولى الشعراوى المفتش بالأزهر الآن (١) .

وفى السنة الخامسة الثانوية أصدرت ديوان « وحى العاطفة » وهو ديوان شعرى صغير ، فيه شعر شاعر ناشىء ، وقد طبعته فى القاهرة ، وكتب مقدمته محمد توفيق دياب رئيس تحرير جريدة الجهاد اليومية وكتب كلمة له الشيخ مصطفى الصاوى الأستاذ بالمعهد .

وفى هذه السنة صرت ممن يشاد لهم بالبنان فى الزقازيق يعرفنى الجميع ويحترموننى ويقدروننى ويولوننى ثقتهم ، وقد صار الأستاذ البيومى المحامى بالزقازيق من أعز أصدقائى ، وكان قد رشح نفسه لعضوية مجلس النواب فى الدائرة التى رشح نفسه فيها إبراهيم دسوقى أباظة ، ومن سوء حظى أننى صرت أعاونه فى أمور هذا الترشيح لأنه كان فقيرا وعصاميا ومكافحا مثلى ، وبالطبع لم ينجح فى الانتخابات آنذاك .

وفى هذه السنة توطدت صلتى بالشيخ محمد الغنيمى التفتازانى وهو قريبنا من ناحية بعيدة وصديق حميم لوالدى من ناحية أخرى ، وكانت له منزلته الدينية والأدبية والاجتماعية ، وله شهرته ، ويكتب إلى الأهرام حديث الصيام كل عام ، ولسوء الحظ مات الشيخ التفتازانى هذا العام أيضا ؛

---

(١) فى ٢٤ من يوليو ١٩٣٥ توفى أخى المرحوم عبد الفتاح خفاجى .

وهكذا أراد القدر لى أن أشق طريق بنفسى ، وألا أعتمد فى النجاح فى الحياة على أحد .

وإن كان هذا سبب لى مشكلات كثيرة ، فقد قاسيت مرارة الكفاح والحرمان سنوات طوالا ، وكنت أحرم نفسى من شراء بعض الكتب التى أستفيد منها فى حياتى الأدبية توفيرا لميزانيتى الضئيلة ، مما حرمنى من أشياء كثيرة ، ومما أخر نموى الفكرى سنوات عديدة ، وإن كنت أتقدم إخوانى فى هذا الطريق بمراحل كثيرة .

وفى صيف هذا العام ، عام ١٩٣٦ توفى والدى (فى ٢ أكتوبر ١٩٣٦) وحرمت من قلب كبير يدعو لى دائما بالخير ، ولم يبق لى إلا أمى وأخى الأكبر وكفاحى المتواصل من أجل الحياة .

وظهرت نتيجة امتحانى فى الشهادة الثانوية وكنت فيها متفوقا كذلك على زملائى عامة .

وأصبحت طالبا مرشحا للالتحاق بكليات الأزهر الشريف .

وخلال هذه المرحلة الشاقة من التعليم الثانوى توطدت منزلتى فى قريتى وفى بيئتى العلمية فى داخل الأزهر ، وفى البيئة العامة خارجه .

وصرت أتمتع بشهرة كبيرة ، فى كل مكان . .

وضربت فيها المثل الرائع لكفاح طالب فقير قروى ناشىء ، من أجل الحياة ومن أجل التعليم ومن أجل الثقافة ، دون أن أمد يدى لأحد ، ودون أن أذل نفسى كغيرى بامتهان مهنة أخرى ، ولو كانت هذه المهنة التدريس الخصوصى أو غيره . .

وانتهت مرحلة صعبة حرجة من أشق مراحل حياتى الصامدة المكافحة المثابرة . .

وكان للشاب مكانته بين إخوانه ، يحبهم ويحبونه ، وكان له منزلة بين أساتذته يبجلهم ويقدرونه، وكانت له شهرة علمية فى معهده لايجحدها إنسان وخطب فى المعهد فى الحفلات العامة . وبدأت مواهبه الأدبية تظهر وهو طالب فى الفرقة الثالثة الثانوية ، وأخذ يحب الشعر ويتمنى أن ينظمه،وكان الباعث على تكوين مواهبه الشعرية فوق قراءته فى الشعر هو تأثره الكبير بابن خال له شاعر يسمى نافع خفاجى وكان الشاب الصغير ، يقضى أجازاته معه فتأثر بشعره وشاعريته . .

وكان الشاب فى أثناء الدراسة يسكن فى الزقازيق فى منزل لصديق له اسمه عبد الحميد العزازى ، وهو منزل كبير واسع كان يسكن فيه الكثير من الطلبة ، أوفى منزل بجواره لعائلة « أبو عفارة » وهم تجار أغنياء مشهورون ، والمنزلان متجاوران فى حى الحسينية بالزقازيق .

وفى المدة التى قضاها الشاب فى الزقازيق اشتدت صلته بأدبائها ، ونظم الشعر . وكتب المقالات والبحوث الأدبية ، وأسهم فى الصفحات الأدبية فى أكثر المجلات والصحف . وكان من أساتذته فى المعهد شيوخ أجلاء ، منهم الشيخ على خاطر وقد توفى عام ١٩٥١ ، والشيخ منير الجبالى والشيخ محمد الشرقبالى ، والشيخ سيد الباز ، والشيخ موسى شريف ، والشيخ محمد نور الحسن ، والشيخ الطيب النجار ، والشيخ محمود النووى ، والشيخ محمد البحيرى ، والشيخ محمد المحمودى ، والأستاذ عبد العزيز عبد الحق .وسواهم.

والزقازيق مدينة كبيرة ، أسست فى عهد محمد على باشا ، وتقع على بحر مويس . وهى عاصمة الشرقية ، ومحطتها جميلة منظمة على أحدث طراز ، جوها مناسب صيفا وشتاء ، وشوارعها أنذاك غير معنى بها العناية الكاملة ، بها مدارس ابتدائية وثانوية وزراعية وتجارية وصناعية ومعهدها الدينى شيد منذ أمد غير بعيد على أحدث طراز ، به قسم ابتدائى وثانوى ، وتولى مشيخته عدد من فطاحل العلماء هم : الشيخ الجبالى ، فالأستاذ الأكبر

الشيخ ابراهيم حمروش عميد كلية اللغة وعضو مجلس الأزهر الأعلى وعضو مجمع فؤاد اللغوى وشيخ الأزهر ، ثم الأستاذ الورع العالم المرحوم الشيخ عبد الحكم عطا ، ثم فضيلة الأستاذ المرحوم الشيخ أحمد مكى ، ففضيلة الشيخ السرتى ، ففضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود أبو العيون ، وكان شيخا للمعهد عام ١٩٣٥ و١٩٣٦ فى السنتين الأخيرتين التى قضاهما الشاب فى المعهد ثم الشيخ الغمراوى فالشيخ دراز فالشيخ سليمان نوار فالشيخ حامد محيسن فالشيخ عبد العزيز المراغى فالشيخ الجليل عبد الحليم قادوم وهو من صفوة العلماء وخيارهم ، فالدكتور عبد الرحمن تاج .

وكان المرحوم الشيخ أبو العيون يغدق عليه وهو فى السنة الرابعة والخامسة الثانويتين مظاهر العطف والتشجيع والتقدير ، ويعتبر أستاذه الأول فى خطى حياته الحافلة ، وكان الشيخ أبو العيون شخصية لامعة فى الأزهر والمجتمع ، كرس جهوده لخدمة المجتمع وإيقاظ روح الدين والفضيلة فيه ، وتولى مناصب كثيرة فى الأزهر ، وكان السكرتير العام للأزهر الشريف. و توفى فى ١٩ نوفمبر عام ١٩٥١ .

الخفاجيون فى التاريخ

— ١ —

لقد كتبت عن قومى الخفاجيين ، قبيلتى العربية القديمة ، أصولها وفروعها ، فى كتابى « بنو خفاجة » تاريخهم السياسى والأدبى الذى ظهر منه تسعة أجزاء . وكان أملى أن يظهر فى ثلاثين جزءا لكن العقبات المادية وقفت فى سبيلى فلم تترك لى خيارا فى شىء ، كما هو شأنى دائما فى الحياة .

وصدر كتاب جديد لى بعنوان « الخفاجيون فى التاريخ » منذ قريب ، ولعل الصورة التى ســوف يخرج عليها تضىء السبيل لدراسات أوسع ، وبحوث أطول عن الخفاجيين ، وعن تراثى أيضا بإذن الله .

— ٢ —

ولكم كنت مترهبا للبحث ، وأنا أنقب عن تاريخ قومى فى بطون الأسفار والكتب ، لأجد جملة هنا ، وسطرا هناك ، وصفحة فى مصدر مجهول ؛ ولأعطى من ذلك كله دراسة مفصلة وجليلة ، عن قبيلة عربية قديمة ، أصبح تاريخها القديم والحديث لغزا من الألغاز .

ومن شخصياتها الكبيرة مثلا : الأمير ابن سنان الخفاجى ، وابن خفاجة الأندلسى ، والشهاب الخفاجى ، والشيخ نافع الخفاجى ، وسواهم .

— ٣ —

وأود للجيل الجديد من أبنائنا وأحفادنا أن يعوا الدروس الكبيرة التى سجلتها فى بحوثى عن الخفاجيين ، وأن يكون لذلك صدى عميق فى حياتهم بإذن الله .

ابن الريف

حياتى كلها من أول يوم فيها حتى الآن تحمل طابع الريف .

تحمل سذاجته وصراحته وقسوته وكآبته أيضا . .

وطبيعة الريف فى قلبى وعقلى رؤاها وصداها . .

وبساطة الحياة فيه هو نموذج حياتى دائما .

وعند ماتركت الريف ومشاهده إلى حياة المدن وفظاظتها شعرت بكآبة شديدة ، ومن هنا كان اختيارى منطقة الهرم لسكناى . . إنها تجمع بين حياة الريف والمدينة ، ففيها من الريف طبيعته ، وفيها من المدينة نظامها .

لقد ترك الريف فى نفسى أثرا عميقا لايمكن نسيانه .

جوه الرومانسى الحزين حمل إلى نفسى الكآبة والانفعال والثورة .

وجدب الحياة فيه حمل إلى قلبى الحرمان والشقاء والحزن والألم .

وأنا بكل ما أنا فيه مدين للريف .

فقد علمنى الاعتماد على النفس .

وتحمل المسئولية .

والحرص على أداء الواجب .

وعلمنى أن لقمة الحياة لايمكن لمثلى من المحرومين انتزاعها من فم الدهر إلا بالكفاح والمثابرة وبالجلاد الطويل . .

لقد صار العشب الأخضر عندى يحمل معنى الحياة ، وكم صرت أبكى عندما تطؤه قدماى عن غير عمد منى .

وكذلك عشت الحياة . .

صور باسمة

— ١ —

ولست أنسى بعد طفولتى كيف كنت مقبلا على قراءة الصحف والمجلات إقبالا شديدا .

الأهرام ومجلة الرسالة ومجلة المقتطف والهلال ومجلة أبولو ، وجريدة الوادى وبخاصة عددها الأسبوعى الأدبى الذى كان يصدر بإشراف الدكتور طه حسين ومجلة السياسة الأسبوعية ومجلة الأزهر وغيرها .

كلها كانت أثيرة عندى ، حبيبة إلى ، قريبة من نفسى ، وكان حرصى على تناول مجلة الرسالة فى موعدها الأسبوعى حرصا شديدا لا يعدله حرص .

— ٢ —

وفى نهاية طفولتى كنت ألعب أنا وفتاة من قريباتى دائما ، وأمام منزلنا فى الأصيل ، وكنت وأنا الطفل الصغير أحبهـــا وأحب اللعب معها وأواظب عليه .

وكانت تزور أمى عائلة مهندس زراعى يتولى شئون الزراعة فى قريتنا من قبل وزارة الأوقاف ، وكانت له أخت صغيرة وديعة ، صارت حبيبة لنفسى ، قريبة إلى قلبى . .

وكان هذا هو أجمل ما تعلقت به فى طفولتى الوديعة الباسمة .

— ٣ —

وفى نهاية طفولتى كذلك سافرت أمى لتزور طنطا ودسوق وتزور مشاهد الأولياء والصالحين هناك ، وسافرت معها ؛ وهناك شاهدت حياة غير الحياة فى قريتى ، ووقفت أمام مشاهد السيد البدوى وإبراهيم الدسوقى ، ورأيت طلبة

المعهد الديني الأحمدى فى طنطا . . وكان لذلك صداه فى نفسى .

وفى هذه الرحلة زرنا إحدى قريباتنا فى القرشية ، وركبت القطار الحكومى لمسافات طويلة .. وعدت إلى القرية وفى نفسى صدى عميق لطلبة المعهد الأحمدى ولزيهم وللكتب التى يحملونها ، والدروس التى يتلقونها ؛ وشاء الله أن أصير مثلهم بعد قليل .. أحمل مايحملون من مسئولية ، وأتلقى ما يتلقون من ثقافة ، وأقبل على مايقبلون عليه من دروس .

— ٤ —

وشاء الله أن أكبر قليلا ، وأن أكتب بعد ذلك إلى الصحف والمجلات التى طالما كنت أحب مطالعتها ، كتبت إلى مجلة الأزهر أناقش مسألة تحريم ورق اليانصيب ، ورد على الأستاذ الكبير إبراهيم الجبالى ردا مقنعا أشاد فيه بى وبما كتبته .

وكتبت إلى الجهاد مقالات عدة كانت تنشر فى صفحاته الأدبية ومنها مقالة طويلة عن أبى نواس ، وكتبت عن حافظ وشوقى إلى السياسة الأسبوعية ، وأرسلت رسائل أدبية إلى الرسالة وقصائد شعرية إلى الأهرام ، وغيرها .

وكان ذلك من أوائل أعمالى الأدبية .

الأمل العظيم

— ١ —

كان ميلادى كما كانت تقص على والدتى رحمها الله استجابة من السماء لدعائها بأن يرزقها الله ولدا يكون مثل أبيها عالما من علماء الأزهر ، وكان جدى لأمى الشيخ نافع الجوهرى خفاجى عالما كبيرا ومؤلفا ضخما ،

وإماما من أئمة عصره فى مختلف العلوم والمعارف ، وقد كتبت عن حياته فى كتابى « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى الأدبى » وكان لأمى ولد وثلاث بنات ، وخرجت إلى الحياة لأكمل عددهم ، ولدين وثلاث بنات ، وكنت آخر إخوتى ، ومحبوبا من الجميع ، وكان ما أرادته أمى لى فى الحياة من حظ ، فكنت أستاذا من أساتذة الأزهر ، وكانت ثقافتى مما أفدته من بين جدرانه وحلقاته وأروقته .

— ٢ —

وفى طفولتى رأيت كأنى على شاطىء نهر عظيم وفى يدى اليمنى خاتم سليمان ، ووقع منى ، ووقع الخاتم فى النهر ، وكانت أمى تقص علينا أساطير جميلة شائقة فى أمسيات الصيف فوق سطح منزلنا أو منزل جدتى أو خالى ، وكانت تذكر لى خاتم سليمان فى أساطيرها الشائقة ، ورأيته فى إصبعى ، ولكنه ضاع منى .

وجاءت امرأة أبى فى يوم لتقص علينا ، وكان ذلك نحو عام ١٩٢١ ، أنها رأت رؤيا طريفة أن جيشا يهوديا دخل الاسماعيلية ولم يستطيع أحد أن يقاومه ، ووقفت أنا أمامه ورفعت يدى فى وجهه فخرج من المدينة هاربا .

وكانت تلك الرؤى الجميلة الأسطورية ذات نغم لذيذ فى سمعى .

وبعد ما كبرت وفى عام ١٩٦٧ ، وكنت فى مأساة آنذاك رأيت أنى فى حجرة ، فيها آثار توت عنخ أمون ، ورأيتنى أحمل عصا توت عنخ فى يدى وآخذها من بين آثاره .

— ٣ —

لقد كانت أساطير جدتى وأمى فى ليالى الصيف الجميلة المقمرة ، فوق منازلنا فى الريف ، وكانت تلك الرؤى الحالمة ، زادا لى فى محنتى وفقرى وكفاحى ، زادا وريا أتعلل بهما فى الحياة .

كنت أحمل المسئولية من طفولتى ، وأجتهد فى أن أرفه عن أمى المكافحة ، وأن أحمل عنها بعض العبء ، ووجدتنى ذات يوم ألعب فى مفتاح أحد الأبواب فى منزلنا حتى صار المفتاح لا يفتح ولا يغلق ، ويحتاج القفل بعد ذلك إلى إصلاح ، فحزنت وبكيت ؛ وجاءت أمى لتنقذنى من البكاء الذى كنت فيه ، وكان مبعثه أننى تسببت فى إزعاج أمى لا فى رفاهيتها وسعادتها .

وهكذا سرت فى الحياة ، أتحمل مسئولياتها مهما ثقلت بترحيب وابتسام جد كثيرين .. وأصبحت الآن فى العقد السادس من حياتى ، ولم تكن أعبائى اليوم بأكثر من أعبائى التى حملتها من قبل فى الحياة ..

فى القـاهرة

— ١ —

كانت رؤيتى للقاهرة لأول مرة عام ١٩٣٤

كنت قد تقدمت عام ١٩٣٤ وأنا طالب فى السنة الثالثة الثانوية إلى كفاءة دار العلوم ؛ وذاكرت علومها ، وقدمت الاستمارة الخاصة بالامتحان من الخارج ، ودفعت الرسوم المقررة على . وإذا بى أحرم من دخول الامتحان بحجة أنى طالب بمعهد الزقازيق .

ورفعت قضية على وزارة المعارف وذهبت إلى مصر لرفعها .

ورأيتها لأول مرة ، شوارع واسعة ، وبيوتا شاهقة ، وحركة دائبة وأضواء باهرة ، وحياة غير حياتنا نحن فى القرية أو فى الزقازيق .

ونزلت لدى شقيقتى ، وكان زوجها يعيش فى الجودرية فى القاهرة .

وبالطبع شطبت قضيتى لعدم سند قانونى لها ؛ ولكنى استفدت من هذه التجربة ، بالاطلاع على علوم كثيرة ، ورؤية القاهرة ، والوقوف وسط مشكلات كبيرة ، وبجارب كثيرة ضخمة . . . وفى عام ١٩٣٥ ذهبت إلى القاهرة مرة ثانية لحضور حفل تكريم المراغى ، وشاهدت عاصمتنا الجميلة مرة ثانية .

— ٢ —

وخلال طبع ديوانى ، وحى العاطفة فى أوائل عام ١٩٣٦ ذهبت إلى القاهرة لطبعه ، ومكثت نحو شهر ، وعدت إلى الزقازيق محملا بنسخه ، وأفدت تجربة جديدة ، وكان أول كتاب لى أطبعه ، وتحملت نفقات كثيرة فى طباعته آنذاك زادت أزمتى أزمة ، ومشكلاتى مشكلات .

— ٣ —

وفى صيف عام ١٩٣٦ ذهبت إلى القاهرة للالتحاق بكلية اللغة العربية ، وتم كل شيء ، وصرت طالبا فى الكلية وفوجئت قبل بدء الدراسة بوفاة والدى يوم الجمعة الثانى من أكتوبر سنة ١٩٣٦ ، وعدت إلى قريتى الصغيرة محملا بأعباء كثيرة ، وبأحزان عميقة ، وبتفكير متصل فى أمور حياتى القاسية المضطربة .

— ٤ —

ولم ألبث أن عدت إلى القاهرة للدراسة فى الكلية فى نهاية الأسبوع من الأول أكتوبر عام ١٩٣٦ وصرت أقاسى من زيادة نفقات القاهرة وأعباء الحياة فيها .

فكرت فى الالتحاق بجريدة للتصحيح فيها ، جريدة الأساس ، جريدة السياسة اليومية ، جريدة الأهرام .

وفشلت فى هذا العمل لأنى كنت جديداً عليه ، وكنت أعمل وسط أناس يبدون لى كأنهم أعداء لا أصدقاء أوزملاء .

وعدت إلى الاقتصار على الدراسة وحدها ، وكان عميد الكلية الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الأزهر فيما بعد .

وكان لوالدى صديق فى القاهرة هو إبراهيم سمرى ، وكان قد سبق له أن عمل فى المنصورة ، وصهره توفيق صليب صحفى قديم وابنه « حبشى سمرى » مستشار ، « وعبد الملك سمرى » وكان أعز أصدقائى ، وكان عونا لى فى كثير من المشكلات ، وكان محاميا ، ويعيش حياة فقير مكافح مثلى فى الحياة .

وفرغت إلى الكلية ، وتركت كل شيء إلا الدراسة .

الأدب يدرسه لنا الشيخ حامد مصطفى

النحو يدرسه لنا الشيخ عبد العزيز النجار

الصرف يدرسه لنا الشيخ عبد الحميد عنتر

البلاغة يدرسها لنا الشيخ الجنجيهى

المطالعة « « « محمد الطنطاوى فى كتاب الأمالى

النصوص « « « حامد مصطفى

التاريخ يدرسه « « عبد الفتاح بدوى إلى غير ذلك من المواد كالحديث والتفسير .

وصرنا ندرس الأشمونى ، وندرس إيضاح القزوينى .

وندرس كتاب الخبيصى فى المنطق على يدى الشيخ عبد الحليم قادوم ، وندرس الكشاف فى التفسير .

وكافحت ونجحت، وكنت الثالث فى فرقتى. كانت كلية اللغة آنذاك مكان مدرسة القضاء الشرعى فى البراموني .

وكانت فصول السنة الأولى اثنين ، وكان من زملائى فيها : عبد اللطيف سرحان ، محمود العقدة، ورياض هلال رحمهم الله جميعاً ، وعبد الرحيم فودة وأحمد صقر ومحمد فهمى عبد اللطيف ومحمد دفتر دار المدنى ، وسواهم ، وكان سكننا هذا العام فى حارة البقلى بالقلعة درب الشهيدة رقم ٩ مع برهان الدين الويشى الطالب بالسنة الأولى بكلية اللغة أيضاً ومع آخرين من زملائنا ، وكنا جماعة متنافرين فى الطباع والأخلاق، ولكننا زملاء وأصدقاء الدراسة

وبدأت أكتب الشعر الجيد الذى أرضى عنه ، وتطيب له نفسى .

وانتصرت، انتصرت على الحرمان ، على مشكلات كثيرة.. على ظروف حياتى المحدودة .

— ٥ —

وانتقلت إلى السنة الثانية بكلية اللغة العربية .

أما شيخ الكلية حموش رحمه الله فقد كان شيخا مهيبا جليلا .

حجة فى علوم الدين واللغة والأدب ، وإمام فى المعقول والمنقول ، وشيخ من مشايخ الأزهر المعاصرين ، تتلمذوا عليه ، ونهلوا من معين علمه الفياض ، واستمعوا لاحاديثه وآرائه فى اللغة والبلاغة والأدب ، وفى علوم الشريعة وأحكامها ، وفى دقائق الاجتماع والتاريخ فكان لهم من ذلك علم غزير ، ومدد فياض ، كان مجلسه العامر يفيض بالجديد الطريف من معارفنا الحاضرة ، وبالتليد القديم من علوم الأوائل ومعارفها ، وإلى جانب ذلك الفكاهة الشائقة ، والآداب الرفيعة .

فى سمت الصالحين الورعين ، والزاهدين العابدين ، مع التقوى والتواضع وعفة اللسان ، وطهارة القلب ، ويقظة الضمير مع التوكل على الله والتباعد عن السياسة ، وهو من أرومة عربية طيبة ، من عرب إقليم البحيرة ، وحفظ القرآن ، وجاور فى الأزهر ، وتتلمذ على الإمام محمد عبده ، ونال العالمية من الدرجة الأولى ، وشغل منصب التدريس فى الأزهر ، ثم فى مدرسة القضاء الشرعى ، ثم تدرج فى مناصب القضاء ، ثم اختير شيخاً لمعهد أسيوط ، فشيخاً لمعهد الزقازيق ، فعميداً لكلية اللغة العربية ، فشيخاً لكلية الشريعة فيما بعد ، ثم أسندت إليه رئاسة لجنة الفتوى بالأزهر الشريف ، ثم منصب المشيخة العظمى ، والإمامة الكبرى للاسلام والمسلمين .. إلى جانب عضويته فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة .

وقد عاش طول حياته يحلم بإصلاح الأزهر ، ويعمل مع العاملين لهذا الهدف ، ويشترك فى جميع اللجان التى ألفت لذلك ، وتوفى رحمه الله عام ١٩٦١

تاريخ جديد

وبدأت الدراسة من جديد فى السنة الثانية بالكلية فى أكتوبر عام ١٩٣٧

وفى هذا العام سكنت فى القلعة ، وحضرت إحدى شقيقاتى من البلدة لتقيم معنا ، وكان سكننا شقة صغيرة جديدة فى حارة مزوية ، وكانت قريبة من سكننا فى العام الماضى .

وتفرغت للدراسة ، وساعد على ذلك أنى كنت آخذ مكافأة الأوائل الشهرية ، ولم تكن تزيد على جنيه واحد ، وكانت قوة الجنيه الشرائية آنذاك كبيرة ، فهو يقوم اليوم مقام العديد من الجنيهات .

وكان يدرس لنا الأدب آنذاك الشيخ حامد مصطفى أيضاً ، وله مؤلفات ، والنحو الشيخ محمد الطنطاوى ، والصرف الشيخ عبدالحميد عنتر ، والتفسير والحديث والعروض والمنطق والتاريخ والإنشاء أساتذة آخرون ، وكنا ندرس المطالعة فى كتاب الكامل المبرد ، وكان الذى يقوم بتدريسها لنا هو الشيخ محمد الطنطاوى أيضا وكان عالما جليلا ، وتوفى عام ١٩٥٨

وفى هذا العام بدأت أقرأ جميع أصول كتب الأدب العربى القديم والحديث كلها ، وكان الذى حفزنى إلى ذلك حادث طريف .

كنت أقرأ فى حصة المطالعة نصاً لقيس بن عاصم المنقرى فى الكامل أمام الطلبة ، ولم أدر شكل الميم فى «المنقرى» فشعرت بأن الشيخ كأنه يستهزىء بى ويوزنى العلمى ، فأخذت أقرأ جميع مصادر الأدب العربى ، حتى لا يستخف بى أحد بعد ذلك قرأت الأغانى ، والبيان والتبيين ، والأمالى والعقد الفريد وزهر الآداب ويتيمة الدهر وغيرها من كتب قديمة ، ومن كتب حديثة كذلك .

وبذلك وصلت إلى غاية لايستطيع زميل لى أن يجاريني فيها .

وكان أطرف وأعجب ماسررت به كتاب حضارة الإسلام فى دار السلام لنخلة مدور ، وكتاب حضارة العرب لمحمد كرد على ، لأن منهج البحث فيهما متسلسل والمراجع مذكورة فى هامش الصفحات ، والنصوص منقولة ومشار إلى مراجعها ، وصارت تلك الطريقة تعجبنى ، وهى التى أحتذيها فى أعمالى الأدبية .

وانتهت بنا هذه السنة إلى الامتحان ، وانتهى بى الامتحان إلى المحافظة على مكانى فى التفوق ، بحيث لايستطيع أولم يستطع أحد أن يزاحمنى فيه .

وصرت بذلك أستحق المكافأة التى تمنح للأوائل الخمسة وهى التى كان يتسابق من أجلها كثيرون من زملائنا .

الكلية أم الحياة

وبدأت بعد صيف عام ١٩٣٨ الدراسة فى السنة الثالثة .

مادة النحو فى الأشمونى .

ومادة الصرف فى مذكرة ويقوم بتدريسها لنا الشيخ عنتر .

ومادة المنطق فى الخبيصى ويقوم بتدريسها لنا الشيخ أحمد شرف ، وكنت أسميه « الشيخ الخبيصى » من باب الدعابة .

ومادة الإنشاء الأستاذ محمد البيلى الفار وهو منتدب من وزارة المعارف ، وكان خلال العام يعمل فى تحقيق ديوان الجارم وكان يستدعينى للعمل معه فيه ، وشرح معانيه ، فى منزله بالمنيل . ومادة الأدب وأستاذها هو الشيخ عبد الجواد رمضان .

ومادة المطالعة فى زهر الآداب .

ومادة البلاغة فى الإيضاح ويدرسها لنا أستاذ فاضل هو الشيخ عبد الحميد ناصف أطال الله فى حياته .

ومادة الفلسفة ويدرسها لنا الشيخ محمد عرفة عضو جماعة كبار العلماء . وكان ذلك بدء صلتى العلمية به .

ومادة التفسير ويدرسها لنا الشيخ محمد الطنيخى عضو جماعة كبار العلماء فيما بعد .

ومادة الحديث

ومادة فقه اللغة ويدرسها لنا الشيخ محمد الزفزاف .

ومادة التاريخ ويدرسه لنا الشيخ عبد الفتاح بدوى رحمه الله ، وكان أستاذا جليلا بحق .

ومادة الانشاء وكان يدرسها الأستاذ أحمد يوسف نجاتى ، وكان من أفذاذ العلماء المتخرجين من الأزهر ودار العلوم ، وله كتب وتحقيقات علمية ، وقراءات فى التراث جد واسعة .

وكنا نسكن فى بركة الفيل فى منزل صغير هادىء أنا وابن أختى وأختى جميعا .

وكان من أجل الأساتذة الذين تأثرت بهم فى هذه المرحلة هو الشيخ إبراهيم حمروش شيخ الكلية ، والشيخ محمد عرفة ، والأستاذ نجاتى .

وكان لنا زملاء جد نابهين : محمد فهمى عبد اللطيف ويكتب فى الرسالة وفى الصحف اليومية . أحمد عبد اللطيف بدر ويكتب فى الأهرام ، حسن جاد الشاعر ، أحمد حسن الباقورى زعيم طلاب الأزهر ، أحمد السيد صقر ، ويعمل فى تحقيق التراث وقد أخرج شرحا لديوان علقمة الفحل ، وغير هؤلاء كثيرون .

لم أكن فى الكلية منضويا إلى حزب أزهرى ، ولا إلى حزب سياسى بعكس زملائى ، وكانوا يستفيدون من تشيعهم إلى هذه الأحزاب المختلفة أما أنا فوقفت حيث أنا لا أتقدم ولا أتأخر ، ولا يساعدنى أحد فى حياتى ، إنما أسير معتمدا على الله وعلى نفسى وحدها .

وبدأت الأحداث السياسية تتجه إلى تشتيت الوفد ، وقيام حملة شعبية ضده ، وكان ممن استخدموا للقيام بهذه الحملة هو الباقورى .

ودعانى الباقورى وحوله آخرون إلى اجتماع وقال إنه اختارنى لأسافر إلى مركزنا للاتصال بالأهالى والشعب وإيضاح الحقائق للناس .

وأردت أن أغتنم هذه الفرصة للدراسة العامة ، وللاتصال بالناس ، وكانت ظروفى المادية تحول بينى وبين ذلك من قبل وسافرت ، وتكلمت فى كل شىء إلا فى السياسة ، وقضيت مصالح كثيرة لأناس من قريتنا فى دواوين الحكومة ، وطفت ببلاد المركز التى تجاور قريتنا .

ثم عدت للقاهرة ، للدراسة ، للقراءة ، والمطالعة وانتهى بى المطاف إلى النجاح ، والمحافظة على مكانى بين زملائى ، وهو المكان الذى يجعلنى أهلا للمكافأة التى تمنح للخمسة الأوائل ، وكنت أنا ومحمود العقدة ورياض هلال وعبد اللطيف سرحان نأخذها كل عام .

ولم تلبث الأحداث العلمية أن تعقدت ، وأن قامت الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر ١٩٣٠ . واكتوى العالم بنارها سنين عديدة .

وفى صيف عام ١٩٢٩ مات صديقى الشيخ عبد المنعم الموافى أول من عشت معه فى مطلع حياتى فى التعليم فى الزقازيق .

نهاية مطاف

وأصبحت فى السنة الرابعة فى الكلية ، وبدأنا الدراسة .

مادة النحو وأستاذها هو محمد الطنطاوى .

مادة الصرف وأستاذها هو الشيخ أحمد عمارة وقد تولى عمارة الكلية فيما بعد .

مادة البلاغة وأستاذها هو الشيخ عبد الحليم قادوم رحمه الله .

ومادة المطالعة وأستاذها هو الأستاذ نجاتى ، والكتاب هو مقدمة ابن خلدون .

ومادة التاريخ وأستاذها هو عبد الفتاح بدوى .

ومادة الانشاء وأستاذها هو نجاتى .

ومادة الأدب وأستاذها هو الشيخ عبد الجواد رمضان ، وكان شاعرا أديبا متميزا .

ومادة التفسير على الشيخ عبد الهادى العدل رحمه الله وقد توفى فى ٤ من ذى القعدة ١٣٨٤ هـ — ٦ مارس عام ١٩٦٥ .

مادة الحديث

ومادة الفلسفة وأستاذها هو الشيخ عرفة كذلك .

ومادة فقه اللغة ويدرسها لنا العالم اللغوى الكبير الشيخ محمد النجار إلى غير ذلك من المواد .

وكان سكنى أنا وابن أخى الأستاذ اطفى خفاجى فى جهة السيدة زينب فى شقة بمنزل جديد ويحمل رقم ٦ بحارة الرشيدى بشارع سلامة حجازى بيركة الفيل .

وكانت ساعات الليل والنهار كلها عملا متواصلا من أجل الانتهاء من دراستى فى الكلية .

وكان من أصدقائى طيلة سنوات الدراسة الشيخ محمد سعيد دفتردار المدنى ، وهو من كبار أدباء المدينة المنورة .

وفى هذا العام وقعت أزمة حادة بينى وبين أستاذ الأدب الشيخ عبد الجواد رمضان رحمه الله ، وانتهت بانتصار شيخ الكلية لى وبانتهاء هذه الأزمة .

ودخلت الامتحان لأحوز فيه الأولية حيث أخذت فى جميع مواد الامتحان التحريرى أعلى الدرجات ، وفى الامتحان الشفوى أخذت فى كل مادة ٩٨ من مائة بينما أخذ زميلاى رياض هلال وعبد اللطيف سرحان ١٠٠ من مائة فكنت الثالث ، وليس بينى وبينهما إلا درجة أو اثنين بينما كان بينى وبين الرابع نحو ثلاثين درجة .

ونلت الشهادة العالمية من كلية اللغة العربية وانتهيت من هذه المرحلة الشاقة المريرة .

وسافرت إلى القاهرة أقضى الصيف مع أهلى ووالدتى وإخوتى وأخواتى

وفى خلال صيف عام ١٩٤٠ توفى ابن خالى العالم الشاعر نافع الخفاجى وذلك فى أواخر أغسطس ١٩٤٠ .

وكان من أجل شيوخ الكلية ومن خيار أساتذتى فى مرحلة الدراسة العالمية الشيخ عبد الله الشربينى ، وقد توفى رحمه الله فى يوم الاثنين الحادى عشر من جمادى الأولى عام ١٣٧٠ هـ ، ٣١ من أكتوبر ١٩٦٠ ، أجزل الله له مثوبته .

يا وطنى

ياوطنى الخالد :

لك المجد ولك الحمد ولك أمجد صفات التاريخ .

ياوطنى ، يامصر يا أم الحضارة ، ومهد المدنية ، ومعلمة الشعوب ، لك العزة والثناء ، ولك الحرية والفداء ، ولك العظمة والكبرياء .

ياوطنى : لقد كتبت اليوم أروع أعمال البطولة فى دفاعك المجيد عن بورسعيد ، مما شهد به العالم ، وسجلته الأحداث ، لقد قاتل شعبك المجيد قتال الأبطال من شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل ، فعلمت البرابرة الغزاة أن أرض مصر حرام على المستعمرين ، وأنها أمنع من العقاب ، مادام شباب مصر وشيوخها حريصين على أن يفتدوها بالمهج والأرواح .

يا وطنى : لقد وقفت خلال عصور التاريخ ضد الغزاة الفاتحين مقاتلا باسلا ، ومحاربا صلبا ، فطردت الهكسوس والفرس واليونان والرومان من أرضك ، وطردت الصليبيين والتتار من ثراك الطاهر ، وأقمت بسواعد أبنائك حضارات مشرقة ، وامبراطوريات مصرية ضخمة انحنى لها التاريخ ، وهتف بذكرها الزمان .

يا وطنى : بيد أحمس ورمسيس ، وبيد عمرو بن العاص ، وصلاح الدين ،

وبيبرس ، وبرقوق وبيد عرابى والسادات رفعت أعرق لواء ، وأمجد راية ، وأرفع شعار للحرية والمجد والعظمة والجلال والقوة .

ياوطنى : إن الامبراطورية المصرية فى عهد عمرو بن العاص وخلفائه ، ثم فى عهد المعز وذريته ، ثم فى عهد صلاح الدين الأيوبى وسلالته ، ثم فى عهد المماليك ، ثم فى القرن التاسع عشر : كانت من أعظم الأعمال فى التاريخ ، وكانت رمزا وعزة ومنارة للإسلام والمسلمين . وكهفا تأوى إليه الحضارة والثقافة الإسلامية .

ياوطنى الخالد : لقد وقف الانجليز فى القرنين التاسع عشر والعشرين لنهضتك وحريتك ومجدك بالمرصاد ، فقضوا على الاسطول المصرى فى نافارين ، وقضوا على الجيش المصرى وحرموه ثمرة انتصاراته الحربية العظيمة فى عهد محمد على ، ونهبوا إمبراطورية مصر بسياسة الخداع والتضليل ، ثم صفوا بقاياها فى عهد إسماعيل ، ثم ورثوها فى عهد توفيق بعد الاحتلال ، ولكنهم وشرفك وكفاح أبنائك ونضال شعبك الحر الأبى لن يتمكنوا من هزيمة مصر سياسيا ولا حربيا فى عهد السادات .

بمجدك وتاريخك ، وبأبطالك وأبنائك وبالسادات قائد الأحرار ، وبثراك الحر الطاهر ، سنقاوم الغزاة ، وسننتصر عليهم بإذن الله والنصر لنا بفضل الله ، وبسواعد شعبنا العريق فى المجد والتاريخ .

بدء حياة جديدة

١ — ودخلت الدراسات العليا قسم الأدب والنقد والبلاغة ، وأصبحت طالبا فى السنه الأولى ، وكان ذلك فى أكتوبر من عام ١٩٤٠ .

وكنا ثلاثة لاغير قد التحقنا به :

أنا .

ومحمود فرج عبد الحميد العقدة .

ورياض هلال .

الأدب يدرسه لنا الأستاذ محمود مصطفى وقد توفى رحمه الله فى هذا العام

البلاغه يدرسها لنا الشيخ محمد الغمراوى .

النصوص يدرسها لنا الشيخ حامد مصطفى .

النقد يدرسه لنا الأستاذ محمود مصطفى .

العبرى ، والفارسى ، ويدرسهما لنا الأستاذ كامل المهندس .

وكانت مكافأتنا التى كانت تصرف لنا على التفرغ للدراسة فى قسم الدراسات العليا ثلاثة جنيهات لا غير ، ولا امتحان إلا فى نهاية المدة كلها .. خمس سنوات

والحرب قائمة ، والغلاء يشتد ، حتى الخبز كان فى بعض الأحايين غير موجود .

وسكنت مع شقيقى فى منزل يحمل رقم ٧ بعطفة النبقة بحارة السادات .

٢ — وفى العام التالى كان أستاذ البلاغة هو الشيخ محمد عرفه وأستاذ الأدب هو حامد مصطفى . . . وكان سكننا فى بركة الفيل عطفة حسن راسم منزل رقم ٣ .

٣ — وفى العام الثالث كان الأمر على ماهو عليه وكان عملى فى هذه الفترة القراءة وكتابة البحوث والمقالات ، وتحقيق بعض الأصول أوالنصوص ، وكان سكننا فى منزل بحارة النظارة بشارع نور الظلام فى الحلمية الجديدة ويحمل رقم ١٠ .

٤ — وبدأنا عام ١٩٤٥ نستعد للامتحان التمهيدى للأستاذية (أو الماجستير) .

وخضت معركة الامتحان ، وسط عداوة أستاذنا الشيخ عبد الجواد رمضان ، وأستاذنا محمد هاشم عطية ، دون ماسبب .

وخرجت من الامتحان مظفرا فائزا ، من حيث رسب بعض زملائنا، وكان يرسب كثير من الزملاء فيه ؛ وكان ذلك فى مارس عام ١٩٤٥ .

وكان الامتحان شفويا وتحريريا ومحاضرة عامة فى الأدب ، وكانت محاضرتى عن « التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى » .

وكانت لجنة الامتحان الشفوى مكونة من الشيخ : غرابة — الشيخ محي الدين عبد الحميد — الشيخ عبد الجواد رمضان - الشيخ حامد مصطفى - الشيخ أحمد شفيع (توفى رحمه الله فى ٢٠ / ٨ / ١٩٦١) ؛ وكان الرئيس العام للجنة الامتحان الشيخ إبراهيم حمروش رحمه الله تعالى .

وتوفى فى هذه الفترة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر فى٢٢ أغسطس ١٩٤٥ — ١٤ رمضان عام ١٣٦٤ هـ .

وفى هذه الفترة بدأت أعمل مدرسا بمدرسة الليسيه فرانسيه بشبرا .

وفى ٢٣ محرم ١٣٦٥ هـ — ٢٨ ديسمبر ١٩٤٥ عين الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر .

التحضير لرسالة الدكتوراه

واخترت موضوعا لرسالتى هو « ابن المعتز وتراثه فى الأدب والنقد والبيان » .

وبدأت أكتب فيه .

ونشرت دراستى عن «التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى» فى كتاب .

ونشرت «رسائل ابن المعتز» التى كنت جمعتها لأول مرة . . فى كتاب .

وكان صديقى الأستاذ عبد الملك سمرى قد رشحنى للتدريس فى الليسيه

فرانسيه بالقاهرة بمرتب محدود . . وقبلت المهنة : وعملت مدرسا فى الصباح ، وأخذت أكتب فى الرسالة فى المساء . . دون ما انقطاع ، وكان الصيف وفراغه عاملا مساعدا لى كل المساعدة ، وإن كنت لا أتناول فيه مرتبا ما .

وفى عام ١٩٤٦ انتهيت من كتابة موضوع الرسالة وقدمتها للكلية ، ونوقشت فيها فى أكتوبر من العام نفسه ونلت شهادة العالمية مع درجة أستاذ فى البلاغة والأدب والنقد ، وكانت لجنة الامتحان مكونة من الأساتذة : حامد محيسن ـ أحمد شفيع ـ حامد مصطفى ـ عبد الحميد عنتر ـ عبد الغنى إسماعيل .

وبذلك انتهيت من مراحل التعليم الطويلة التى استمرت تسعة عشر عاما وأخذت أتنفس الصعداء ، وأنا كما أنا مدرس بالليسيه فرانسيه بشبرا ، وظل سكنى كما هو فى حارة النظارة بالحلمية الجديدة .

حياتى العلمية فى الازهر

فى نوفبر ١٩٤٦ صدر قرار بتعيينى مدرسا للأدب والبلاغة فى معهد أسيوط الدينى .

نعم معهد أسيوط الدينى .

مكان ناء كما كنت أظن .

لم أذهب إليه من قبل .

ووقفت مترددا .

أ أسافر ، وأستقيل من عملى بالليسيه أم أبق ، وأعرض عن أسيوط ، وعن السفر إليها ؟

وأخيرا سافرت .

ذهبت إليها .

ونزلت فى فندق من فنادقها الواقعة فى ميدان المحطة ومعى زملاء لى : عبد العظيم الشناوى ، شاكر ، محمود ، وغيرهما .

واستلمت عملى فى المعهد الدينى .

شيخه هو الشيخ عبد الآخر أبوزيد ، من كبار الشيوخ وأجلهم وأحكمهم ، وأكثرهم رزانة وفضلا .

جدولى هو تدريس البلاغة للسنة الخامسة الثانوية والنصوص والأدب للسنة الثالثة الثانوية ، والمطالعة للسنة الرابعة الابتدائية . . الخ .

وفى أول حصة ذهبت إلى الفصل ودخلته ووقفت بجوار كرسى الأستاذ ، وجاء طالب فقال لى : اجلس على المقاعد معنا . . هنا .

كان الطلبة كبار الأجسام وكنت نحيفا ، وظنونى طالبا منهم ، فبادرنى زميل لهم بهذا الكلام .

فقلت له : لا . . إن مكانى هنا .

وبدأت أقوم بواجبي العلمى ، والطلبة منصتون ، وكأنهم كانوا فى ظنهم مخطئين .

ومرت الأيام ، كأحلى ما تكون الأيام ، وأهدئها ثم حدثت عواصف سياسية .

الشباب ثائرون على وزارة صدقى ، لأنها لا تطالب الانجليز بالجلاء .

وقامت المظاهرات ، وخرج معهد أسيوط ثائرا ، وتعرض له البوليس وسقط منه قتلى وجرحى ، وعطلت الدراسة . . وسافرنا إلى القاهرة .

أخذت شقة فى حارة الحبانية بمنزل عباس دعبس ، واشتريت لها بعض الأمتعة . ثم عدت إلى أسيوط . . وبعد انتهاء الامتحان رجعت إلى القاهرة ونقلت عام ١٩٤٧ إلى معهد الزقازيق ، وحال مرضى الطويل دون السفر إليها حتى شعرت بقسط من الراحة فسافرت ، وكان ذلك فى أوائل عام ١٩٤٨ . . سافرت إلى المعهد ونزلت فى فندق . ولم ألبث أن بدأت أفكر فى الزواج وكنت أذهب إلى الزقازيق فى أول الأسبوع وأعود فى نهايته .

اخترت زوجتى . . فتاة هادئة مثقفة ، من دمياط ، بنت الأستاذ محمد إبراهيم كرواية المفتش بوزارة المعارف .

وأعلنت خطبتها ثم عقد العقد الشرعى واستهاسارة فى ٨ / ٤ / ١٩٤٨ . . على يدى الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى .

وقبل هذا الاختيار ، كانت أفكارى متشعبة مضطربة ؛ ولكنها هدأت وسكنت واستقرت .

أبوها أديب وإنسان مثقف توفى .

أمها لطيفة مهذبة .

أخواتها منهم آنذاك من أكمل تعليمه ومنهم من هو فى مراحل الدراسة .

والأيام تسير ؛ وعدت إلى الزقازيق .

دروسى هى الفقه للسنة الرابعة الابتدائية ، البلاغة ، الأدب ، الانشاء ، لاأدرى فى أية المراحل .

شيخ المعهد هو أستاذنا الشيخ عبد الحليم قادوم ، عالم جليل مثقف ، ورع زاهد ، له مؤلفات قيمة ، ومنها رسالته فى المنطق ، كتاب فى الحديث ، آراء فى البلاغة .

واحتفى بى الزملاء ، واحتفيت بهم .. ثم انتهى العام ، وأديت الامتحان ، وعدت إلى القاهرة .

وفى السابع عشر من أغسطس عام ١٩٤٨ نقلت مـــدرسا فى كلية اللغة العربية .

كان الشيخ المراغى قد توفى رحمه الله عام ١٩٤٥ ، وكانت أمور الأزهر الازهر بيد وكيله الشيخ عبد الرحمن حسن ، ثم عين الشيخ مصطفى عبد الرزاق شيخا للأزهر فى ٢٨ ديسمبر من عام ١٩٤٥ ؛ وتوفى إلى رحمة الله بعد قليل ـ ١٥ من فبراير عام ١٩٤٧ .

فعين الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخا للأزهر ، فى أول عام ١٩٤٨ وكان هو الذى أصدر قرار نقلى إلى كلية اللغة العربية .

أعلنت الحرب بين اليهود والعرب عام ١٩٤٨ ، فى عهد وزارة النقراشى وأجلى اليهود العرب عن ديارهم ومدنهم وأعلنوا قيام إسرائيل ، وأيدت قيامها أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا . . أصيب العرب بنكبة ما بعدها نكبة بضياع أرض فلسطين الحبيبة .

فى رحاب كلية اللغة

— ١ —

استلمت عملى فيها مدرسا للأدب ، فى سبتمبر من عام ١٩٤٧ .

جدولى هو تدريس الأدب والبلاغة والعروض للسنة الأولى ، ولم ألبث أن كتبت كتابى الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ثم شرحى على الإيضاح ، ثم طبعت كتابى « فن الشعر فى العروض » ، ثم تحقيق كتاب قواعد الشعر لثعلب، وكنت طبعت من قبل كتابى «التشبيه فى شعر ابن المعتز وابن الرومى » وكتابى « رسائل ابن المعتز » ، وشرحى على البديع لابن المعتز » . .

ومرت بنا الأيام . كان الشيخ الكلية هو الشيخ حامد محيسن ، ثم نقل إلى التفتيش العام وأعقبه شيخ إبراهيم الجبالى . ثم نقل عميداً لكلية أصول الدين ، ونقل عميد كلية أصول الدين الشيخ عبد الجليل عيسى إلى كلية اللغة العربية ، وأصبح عميدها ، وذهبنا إلى الكلية وهو الذى يتولى شئونها .. كان الحكم آنذاك فى أيدى السعديين ، ثم قتل النقراشى باشا ، فقتل ثأراً له الشيخ حسن البنا(١) ، وخلفه أحمد ماهر .

الحرب فى فلسطين قائمة ، اليهود يشردون العرب بالنار والحديد، الهدنة عام ١٩٤٨ ، إعلان قيام إسرائيل(٢) .

---

(١) كان قتله فى ١٩٤٩/٢/١٣

(٢) فى ٢٩ نوفمبر ١٩٤٧ صدر قرار من الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين بين العرب واليهود ، وفى يوم ١٤ مايو ١٩٤٨ أنهت بريطانيا انتدابها على فلسطين ، وفى اليوم عينه : أعلن قيام الدولة اليهودية وقامت الحرب بين إسرائيل والعرب ممثلين فى مصر وسوريا والأردن ولبنان ، وفى ٢٢ مايو ١٩٤٨ دعا مجلس الأمن=

قتل أحمد ماهر . وخلفه إبراهيم عبد الهادى باشا رئيس الديوان الملكى آنذاك وكان ذلك فى أوائل عام ١٩٤٩ ، وكان السعديون يتولون الوظائف الكبرى ، وكان الشيخ عبد الجليل عيسى سعديا فتولى عمادة الكلية .

ولم ألبث أن شعرت بالشيخ عبد الجليل لا يريدنى فى الكلية ، لأنى كنت من أصدقاء شيخ الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، وكان هو منصرفا عنه ، فعارض فى ندبى وندب بعض الزملاء الذين نقلهم شيخ الأزهر معى إلى الكلية .

ومضت الأيام والشيخ عبد الجليل عيسى يعارض تثبيت نقلنا إلى الكلية ، ووقفت ترقياتى ، وكل أمورى .

ولم نلبث أن فوجئنا بوفاة الشيخ الشناوى(١) رحمه الله ، وخلفه الشيخ عبد المجيد سليم سليم فى مشيخة الأزهر ، وانتهى عهد الدستوريين ، جاء الوفد إلى الحكم عام ١٩٥٠ .

وأخذ الشيخ عبد الجليل عيسى يظهر معارضته لتثبيتنا علانية . .

ولم نلبث أن رأيته قد أقيل من منصبه ، وثبت مجلس الأزهر الأعلى ندبنا فصرنا مدرسين فعلا فى الكلية من عام ١٩٥١ .

= إلى وقف القتال ، وفى ٢٩ مايو ١٩٤٨ أعلنت هدنة لمدة شهرين بين المتحاربين ابتداء من ١١ حزيران (يونيو ١٩٤٨) ، وبعد انتهاء الهدنة استأنف اليهود الحرب فاستولوا على أكثر مما سمح به لهم قرار التقسيم ، وفى ١٨ يوليو ١٩٤٨ قرر مجلس الأمن قيام الهدنة ثانيا دون تقييدها بمدة معينة .

(١) توفى رحمه الله فى الساعة العاشرة من صباح الإثنين ٢١ من ذى القعدة ١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠/٩/٤ وشيعت جنازته فى اليوم التالى ، ودفن بمقبرته بالإمام الشافعى .

فى هذه السنوات أخرجت كتابى « الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام » وهو كتاب ضخم ، وأخرجت شرحى على الآجرومية باسم « تهذيب الآجرومية » ، وشرحى على الأزهرية باسم تهذيب الأزهرية وخلاف ذلك . . الشعراء الجاهليون - أعلام الشعر الجاهلى . . إلى غير ذلك من المؤلفات .

شريكة حياتى

كان زواجى فى ١٩٤٨/٤/٨ . وكان الذى تولى عقد العقد الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى .

شاهدا العقد هما : عمر الطنطاوى باشا خال عروستى ، والشيخ حسين خفاجى المراقب العام بكلية الشريعة .

ليلة بهيجة مشرقة . . الأنوار فيها تتلألأ فى دار صهرى ، والمدعوون من كل جانب وكل ناحية .

ليلة لم يعادلها غير ليلة مجىء زوجتى إلى منزلنا فى الحبانية . . ليلة الزفاف ، فى التاسع من مايو ١٩٤٩

ومضت بنا الحياة جميلة رفافة حلوة مشرقة كأجمل ما تكون الحياة ، وأبهج ما تكون الأيام .

وكان من ثمرة هـــذا الزواج بنت سميناها « وفاء » ولدت لنا عام ١٩٥٢ ولم تعش طويلا . فماتت بعد نحو أربعين يوما من ميلادها ، ودفناها فى القاهرة بقرافة بالقرب من المذبح فى مقبرة عائلة « العرقسوسى » أصدقاء أصهارى وجيرانهم .

كانت حياتى الأولى بعد الزواج تمضى عملا . . لأتمكن من سداد

ديونى ، ولأعيش ، ولأدبر شئونى ، ومعى أختى هاجر حيث كانت كماضى الأيام .

مصر الخالدة

كانت الحياة بعد منتصف القرن العشرين فى القاهرة مضطربة كل الاضطراب .

استقر الوفد فى الحكم بعد انتخابات عامة ، حرب الفدائيين للانجليز فى القتال مستمرة وشديدة وعنيفة . . والمظاهرات فى القاهرة على قدم وساق .

أقيل الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الأزهر ، وحل محله الشيخ إبراهيم حمروش عام ١٩٥١

مات الشيخ محمود أبو العيون المجاهـــد الكبير فى التاسع عشر من نوفمبر عام ١٩٥١ ، وهو الذى نادى عام ١٩٤٦ : عمامتى برأس النقراشى باشا ، وكان البوليس قد أهانه فى مظاهرة لطلبة الأزهر ضد النقراشى ، ووقعت عمامته على الأرض فقال هذه الكلمة المشهورة ، وهو الذى كتب فى جريدة الأهرام ينتقد أميرات البيت المالك فى إقامة الحفلات الراقصة ، حيث كتب مقالة مشهورة ، صدرها بالبيت :

إحدى لياليك ، فهيسى هيسى

لا تنعمى الليلة بالتعريس

والشاعر هنا يخاطب ناقته ، ويطلب منها الجد والإسراع فى السير .

وجاء يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ . . يوم حريق القاهرة الأسود ، وتدخلت الانجليز بإنذارها المشئوم ، وأقيلت وزارة النحاس باشا ، وخلفتها وزارة على ماهر ، ثم وزارة نجيب الهلالى ، ثم وزارة حسين سرى باشا .

وفى فجر يوم الثلاثاء ٢٣ من يوليو ١٩٥٢ - ٣٠ من شوال ١٣٧١ هـ ، قام الجيش المصرى بثورته بزعامة اللواء محمد نجيب . . وتتالت الأحداث ، فأقصى فاروق عن العرش فى يوم السبت ٢٦ يوليو ١٩٥٢ - ٤ من ذى القعدة ١٣٧١ هـ ، ونقل العرش إلى الطفل الصغير أحمد فؤاد الثانى ، وألف مجلس وصاية من الأمير محمد عبد المنعم ، ورشاد مهنا ، وآخرين .

وكان من أشهر الضباط الأحرار جمال عبد الناصر الذى آلت إليه قيادة الثورة ، وظل يحكم مصر سنين طوالا (من عام ١٩٥٢ حتى وفاته يوم الإثنين ٢٨ من ستبمبر ١٩٧٠ - السابع والعشرين من رجب ١٣٩٠ هـ ، فى الساعة السادسة والنصف مساء إثر نوبة قلبية أصابته ، ودفن يوم الخميس أول أكتوبر ١٩٧٠ - أول شعبان ١٣٩٠ هـ) .

ولم تلبث مصر أن شهدت كثيرا من الأحداث الكبرى التى لم تشهد مثلها فى تاريخها الحديث . .

— محاكمة الزعماء ومصادرة أموالهم وأموال الأسرة المالكة .

— إصدار قانون الإصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر ١٩٥٢ .

— إعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ .

— مفاوضات الجلاء بين مصر وانجلترا (١) وخروج الجيش الانجليزى فى ١٨ يونيو عام ١٩٥٦ .

الخلاف بين نجيب وجمال عبد الناصر وإقالة نجيب وتولى عبد الناصر حكم مصر بعده منذ ٢٤ مارس ١٩٥٤ .

— تطهير الموظفين عام ١٩٥٢ .

---

(١) انتهت بإبرام معاهـــدة فى ١٩ - ١٠ - ١٩٥٤ تضمنت جلاء جنود الاحتلال عن مصر .

— حل الإخوان المسلمين وتصفيتهم واعتقال الكثيرين منهم .

— تأميم القناة فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ .

— العدوان الإسرائيلى على مصر فى ٢٩ من أكتوبر ١٩٥٦ باتفاق بين إسرائيل وانجلترا وفرنسا .

الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨ إلى غير ذلك من كبار الحوادث فى تاريخ مصر الحديث التى توالت بعد ذلك ، ومن بينها :

— بدء بناء السد العالى (٩ يناير ١٩٦٠) .

— يوليو ١٩٦١ : صدور القرارات الاشتراكية المشهورة .

— انفصال سوريا عن مصر (٢٨ سبتمبر ١٩٦١ .

— حرب حزيران ١٩٦٧ وهزيمة الجيش فى سيناء فى هجوم اسرائيلى غادر .

وفى التاسع من يناير ١٩٥٥ ولد ابنى ماجد بعد ست سنوات من زواجنا ، وبعد أخته وفاء (التى استأثرت بها رحمة الله) ومضت بنا الأيام .

فى هذه الأثناء كنت أخرجت أعظم كتبى شهرة . . قصص من التاريخ ، الأزهر فى ألف عام — رائد الشعر الحديث - أعلام الأدب فى عصر بنى أمية - قصة الأدب فى مصر - قصة الأدب فى الأندلس - إلى غير ذلك من المؤلفات .

وكان عملى فى الكلية تدريس مواد الأدب والبلاغة والعروض ، وأحيانا التفسير والحديث أيضا .

كان شيخ الكلية بعد نقل الشيخ عبد الجليل عيسى هو الشيخ سليمان نوار ، ثم الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد (عضو المجمع اللغوى بالقاهرة ، ورئيس لجنة الفتوى بالأزهر اليوم) .

وكنت مرجع الأساتذة ، فى أعمالهم وكثير من بحوثهم .

وكانت الكلية يومئذ ، ومنذ عام ١٩٤٥ قد نقلت من البراموني إلى حى

الصليبة ، وكان وكيل الكلية شيخا فاضلا هو الشيخ عبد الله أبو النجا رحمه الله تعالى . .

ومن أساتذتها : الشيخ عبد الله الشربينى رحمه الله ، الشيخ عبد المتعال الصعيدى ، الشيخ أحمد شرف - عبد الجواد رمضان - حامد مصطفى - الشيخ محمد النجار (توفى رحمه الله عام ١٩٦٥) ، وشقيقه الدكتور عبد الحليم النجار (توفى عام ١٩٦٤) ، والشيخ عبد العزيز النجار (توفى عام ١٩٣٧)، والشيخ أحمد شفيع من أساتذة الأدب فيها (توفى فى ٢٠ / ٨/١٩٦٩ وكان أديبا شاعرا فاضلا ، الشيخ محمد كامل حسن (توفى عام ١٩٧٠)الشيخ عبد السميع شبانة (توفى عام١٩٦٩) ، حسن جاد، محمود العقدة - عبد العظيم الشناوى - محمد رفعت فتح الله - عبد الخالق عضيمة - عبد الحسيب طه - أحمد غالى - يوسف البيومى - أحمد شعراوى - أحمد موسى - محمد سرحان - عبد السلام سرحان - عبد اللطيف سرحان - أحمد حسن كحيل - الشيخ محمد عتيبة - الشيخ حامد البلتاجى - الشيخ عبد الحميد ناصف . . الشيخ محمود جميلة - الشيخ حامد عونى - عبد الحميد المسلوت الخ .

وتولى الكلية بعد الشيخ محيى الدين الشيخ عبد الجليل عيسى لفترة قصيرة ثم الأستاذ محمود رزق سليم ، ثم الشيخ أحمد عمارة ، ثم زميلى الشيخ محمد نايل ، ثم الشيخ إبراهيم نجا .

ومن أساتذة الكلية الفضلاء المرحوم الشيخ عبد الفتاح بدوى (توفى رحمه الله عام ١٩٤٣) ، والشيخ عبد السلام يوسف أطال الله فى حياته ، والشيخ محمد بيهى ، والمرحوم الشيخ أحمد غنيم (توفى رحمه عام ١٩٦٦) ، وغيرهم كثيرون .

مجلات ثقافية

منذ ١٩٤٨ ، وأنا أحضر ندوة المقتطف وأشترك فيها ، وأكتب في المقتطف مختلف المقالات العلمية ، وكان من روادها :

سامي جرى رئيس المقتطف (وتوفي عام ١٩٧٠) ، مصطفى عبداللطيف السحرتي ، حسن كامل الصيرفي ، رضوان ابراهيم ، محمد رضوان أحمد ، وديع فلسطين ، محمد عبد الغنى حسن .

وكان الحلقة بين روادها هو الكاتب الأستاذ وديع فلسطين ، وكان يجمعنا أننا أنصار مدرسة أبولو ، وأن لنا أفكارنا الخاصة في الأدب والنقد والشعر وكان الذى حفزني إلى الانضمام إليها هو د . أحمدزكي أبي شادى في رسائله التي يبعث بها إلى من مهاجره في نيويورك .

وبعد قيام الثورة بقليل أغلقت المقتطف وانتهت ندوتها .

كما انتهت مجلة الثقافة التي كان يصدرها — عن لجنة التاليف والترجمة والنشر — د . أحمد أمين .

وانتهت مجلة الرسالة التي كانت تصدر كل يوم اثنين منذ أول عام ١٩٣٣ وكنت أكتب فيها ، كما كنت أتردد على ندوتها الأدبية بين الحين والحين .

وكان اختفاء هذه المجلات العتيدة في أواخر ١٩٥٢ وأوائل عام ١٩٥٣ .

ولا أنسى أن أقول إن مجلة الرسالة كانت زادا فكريا ضخما لنا في مطلع حياتنا الأدبية ، وكنت أحرص على قراءتها كل أسبوع ، وأحيانا كثيرة أكتب فيها بعض المقالات الأدبية والنقدية ، وكانت لها شهرتها الضخمة في العالم العربي ؛ وكان الزيات أزهريا يحب الأزهر ، وينتصر له ويتبنى مسائله ، ويكتب في شئونه ، وكان صديق حزب الشيخ عبد المجيد سليم في الأزهر ،

ومن بينهم الشيخ محمود شلتوت والشيخ محمد المدنى والدكتور محمد ماضى والدكتور محمد البهى . . وسواهم .

ولم يبق مجال للكتابة أمامى بعد الرسالة والمقتطف غير مجلة الأزهر التى كان يتولى رياسة تحريرها الشيخ محمد الخضر حسين ، ثم محمد فريد وجدى رحمه الله ، وهو كاتب إسلامى من الطراز الأول ، وكان منذ عام ١٩٤٠ ينشر لى دائماً مقالاتى فى الدين والأدب والنقد .

رابطة الأدب الحديث

وفى آخر مارس ١٩٥٣ استقر رأينا . . السحرتى - خفاجى - وديع فلسطين - وحسن كامل الصيرفى - د . مختار الوكيل - محمد ناجى شفيق الدكتور المرحوم إبراهيم ناجى الشاعر الكبير (توفى فى ٢٥ مارس ١٩٥٣) - حليم مترى - .

استقر رأينا على إعادة جماعة أبولو التى أنشأها أبو شادى عام ١٩٣١ ، ورابطة الأدباء التى أنشأها الشاعر إبراهيم ناجى عام ١٩٤٤ ، ممثلتين فى جماعة أدبية اخترنا لها اسما جديدا هو « رابطة الأدب الحديث » .

وتكريما لذكرى ناجى اتفقنا على أن يتولى رياستها الأستاذ محمد ناجى وأن نختار الناقد الكبير مصطفى عبد اللطيف السحرتى وكيلا لها .

وبدأت الرابطة نشاطها الأدبى .

واخترنا لها مقراً فى رابطة أبناء الشرقية ، ثم نقلناها إلى مقر آخر فى شارع رمسيس أمام نفق شبرا ، ثم نقلت إلى مقر جديد فى ٣٠ شارع منصور بباب اللوق . ثم استقر بها المطاف أخيرا فى دار رابطة أبناء الدقهلية أمام البنك الأهلى المصرى وتقع فى الدور الثانى من منزل رقم ٦ بشارع بنك مصر .

وهكذا أراد الله أن يلتقى على صعيدها كل أدباء مصر ، وأن تنبثق منها حركة أدبية رفيعة من أضخم الحركات التجديدية فى تاريخنا الحديث .

وكان من أعضائها عدا من ذكرتهم ، الشاعرة جليلة رضا - الشاعر كامل أمين الشاعر محمد مصطفى الماحى، الشاعر محمد عبد الغنى حسن - الأديب الأستاذ محمود عيد سكرتير رابطة أبناء الشرقية رحمه الله - الشاعر محمد عبد المنعم ضيف الله ، رضوان إبراهيم .. الشاعران فوزى العنتيل - وكمال نشأت .

وكانت أمسياتها الأدبية تبدأ دائما كل ثلاثاء بعد المغرب ، ويفد عليها كل أدباء مصر وشعرائها ونقادها وكتابها الكبار والصغار ، وكل الأدباء من العالم العربى من ضيوف مصر .

وفد عليها عزيز أباظة ، ومحمود تيمور . والشاعر القروى ، وإلياس فرحات ، وصفية أبو شادى ، وشعراء كثيرون من العراق وسوريا ولبنان والسودان وتونس والجزائر ومراكش وليبيا ؛ ومن شعراء السودان من الشباب : الفيتورى ، ومحيى الدين فارس ، وتاج السر ، الجيلى عبد الرحمن . ومن أدباء العراق هلال ناجى الذى صار عضوا معنا ، ومن أدباء المملكة العربية السعودية عبد الله عبد الجبار وإبراهيم هاشم الفلالى وحمزة شحاتة ، وقد صاروا أعضاء فى هذه الندوة الأدبية الرفيعة . وغير هؤلاء كثيرون .

وقد أدت رابطة الأدب الحديث رسالة ضخمة فى تاريخنا الأدبى ، وشرفت وجه مصر الثقافى والفكرى . ولم يلبث السحرتى أن صار رئيسها وصرت وكيلا لها .

وهكذا مضت الأيام بنا نكافح من أجل الأدب ، ومن أجل الثقافة ، ومن أجل النقد ، ونخرج من ما لنا كتبا لأدباء كثيرين من مختلف العالم العربى .

أخرجنا للشاعر الفلسطينى هارون رشيد ديوان الأول مع الغرباء .

وأخرجنا للأديب التونسى أبو القاسم كرو كتابه الأول « حصاد القلم » .

وأخرجنا للشاعر الكويتى محمود شوقى الأيوبى ديوانين هما : « رحيق الأرواح » و « الأشواق » إلى غير ذلك من الأعمال الأدبية الكبيرة .

وأخرجنا « مسرحية الشياطين الخرس » للأديب الكبير عبد الله عبد الجبار .

وأخرجنا للشاعر إبراهيم ناجى ترجمته لديوان « أزهار الشر » لبودلير .

كما أخرجنا للدكتورة نعمات فؤاد كتابها عن ناجى .

وكانت الدكتورة نعمات فؤاد وزوجها الأستاذ محمد طاهر عضوين معنا فى مجلس إدارة الرابطة .

واستمرت هذه الحركة الأدبية قوية ضخمة جليلة مؤثرة وقتا طويلا .

وقامت الوحدة بين مصر وسوريا وأعلن قيام الجمهورية العربية المتحدة فى فبراير ١٩٥٨ ، ولم يجد الأدباء السوريون ملاذا لهم إلا رحاب الرابطة .

وكان معنا فيها د . زكى المحاسنى وزوجته الفاضلة وداد سكاكينى .

وانضم إلى الرابطة شعراء كثيرون من أدباء الشباب والشيوخ على السواء ومن المجاهدين المشهورين : طاهر الطناخى - عبد الله التل - الشيخ البشير الابراهيمى - الشيخ المبشر الطرازى ، الشيخ فهمى هاشم النابلسى . وسواهم .. كابراهيم الواعظ من كبار أدباء العراق رحمه الله وقد توفى فى إبريل من عام ١٩٥٨ .

واستمرت الرابطة تحدث أثرها وكل فعاليتها فى أدبنا الحديث عاما بعد عام .

وكنت أقوم بكل أعبائها مع الأستاذ الناقد الكبير مصطفى السحرتى ، وأقوم مع ذلك بأداء محاضراتى فى الكلية ، وبكتابة بحوثى ، وبطبع

مؤلفاتى ، وبإلقاء محاضراتى الأدبية والدينية فى مختلف الأندية الثقافية ، وبنشر مقالاتى فى مختلف المجلات والصحف اليومية .. وغير ذلك من الأعباء .

أمى الحنون

فى يوم الخميس ٢٧ جمادى الثانية ١٣٧٥ هـ — ٩ من فبراير ١٩٥٦ توفيت والدتى .

وكانت سيدة صالحة تقية كريمة تؤثر على نفسها ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتعين على نوائب الحق ، بقدر ما كانت تستطيع . وكانت شجاعة جريئة صلبة العود ، قوية العزيمة .

وكنت أحبها من أعماق قلبى ، وكانت هى التى تربطنى بالقرية الصغيرة موطنى الأول « تلبانة » .

وتأثرت لوفاتها غاية التأثير ، وتذكرت بمصابى فيها مصابى بأبى منذ عشرين عاما ، حين توفى وأنا فى مستهل دراستى العالية .

ولا زلت أذكر ، أذكر صدرها الحنون ، وقلبها الرؤوم ، وإيمانها العميق .

وكان من أمنيتها أن تؤدى فريضة الحج ، ولم يكن فى استطاعتها ذلك مع ظروفنا الصعبة ، التى كنا نجتازها ، وها أنذا بعد نحو خمسة عشر عاما من وفاتها أؤدى عنها فريضة الحج عام ١٣٩٠ هـ .

وإلى رحاب الله يا أمى .

إلى جنان الخلد يا أحب الأمهات .

، حوار المذهولين وتساؤل المشدوهين وحيرة المعذبين .. يا لهول المصاب ولجاعة الخطب ، عمق المأساة .

إن القلب الكبير الحنون الرحيم الذى اتسع كل ما فى الدنيا من حب وإيمان . . وصدق . . وحنان ودفء . . قد توقف عن الخفقان وسكت إلى الأبد .

اللهم ، أنزل فى قبرها الضياء والنور والفرحة والبهجة والسرور واجعلها من سعداء شهداء أهل القبور وابقها آمنة مطمئنة يوم البعث والنشور .

لقد كانت رحمها الله أماً صالحة صادقة مؤمنة حنونا ، احتضنتنا برعايتها وحنانها وحبها وأرشدتنا بنصائحها ، وانارت طريقنا بالدعاء والعمل الصالح وباركتنا فى خطواتنا .

فإلى رحمة الله ورحابه الكريم .

تفسير القرآن

وفى عام ١٩٥٧ بدأت فى مشروع ضخم هو كتابة تفسير القرآن الحكيم فى ثلاثين جزء ، وبدأت كفاحا صعباً فى سبيل طبعه ، وطبعت منه ثلاثة عشر جزءاً بمجهود شاق ، وأزمات مالية عنيفة ، وضاعف من هذه الأزمات شروعى فى بناء بيت صغير لنا فى الهرم عام ١٩٥٩ ، وانتقلنا إليه .

وكان ماجد قد بدأ فى الدراسة .

فكان فى الروضة فى مدرسة الأنصار بحى الحبانية ، ثم التحق بالأولى الابتدائية فى مدرسة درب سعادة الابتدائية . . ثم حولت له فى مدرسة الأندلس بالهرم ، وكانت تبعد عن منزلنا كثيراً . . وكانت هناك صعوبات بالغة . .

وضاعف من هذه الصعوبات مرض زوجتى وهو مرض استمر ثلاث سنوات بشكل مخيف ومزعج . حتى شفاها الله .

وقد عشت كل هذه الظروف الصعبة فى حياتى فى أحلك فترة عشتها ، وأشد أوقات محنى تعقيداً ، وأكثر أيام أزماتى المالية تعقيداً ؛ وكان الفضل فى اجتيازها راجعا إلى محبة الله لى ، وعنايته ولطفه بأمرى .

وكان استمرارى فى إخراج مؤلفاتى ، وكفاحى من أجل العيش ، ومن أجل صحة زوجتى ورعاية ابنى ، والقيام بأعبائى ، والنهوض برسالتى فى الكلية وفى الرابطة . . كان كل ذلك يكون مجموعة من أكبر العقبات التى وقفت فى طريق حياتى ، والتى اجتزتها بعون الله تعالى . .

وكان منهجى فى التفسير جديداً وطليا وطريفا . . وهو منهج سوف يتحدث عنه الدارسون طول عصور التاريخ .

ولقد كان لمساعدات الشيخ محمد سرور الصبان لى فى نشره أثر جليل فى إمكان أن أثابر على إخراج ثلاثة عشر جزءا فى طباعة أنيقة ، ممتازة . .

ولازلت أدعو الله أن يعيننى على إكمال هذا التفسير .

ولقد كان كفاحى فى نشره ممتداً ثلاث سنوات (١٩٥٧ — ١٩٦٠) ، ثم توقفت لما منيت به من أعباء وأزمات مالية مرهقة امتدت ثلاث سنوات أخرى (١٩٦٠ — ١٩٦٣) .

ثم أذن الله أن يأتى بالفرج ، فسافرت إلى ليبيا معاراً إلى كلية اللغة العربية بالبيضاء فى ١٧ نوفمبر ١٩٦٣ بعد سبعة عشر عاماً تماما من عملى فى التدريس فى الأزهر (١٧ نوفمبر ١٩٤٦) ، وبعد خمسة عشر عاماً من انتقالى إلى كلية اللغة (١٧ أغسطس ١٩٤٨) .

إلى ليبيا

— ١ —

وسارت بى القافلة إلى ليبيا .

من قبل . . فى عام ١٩٥٠ أراد الله أن يقرر شيخ الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى أن أسافر إلى العراق ، وكانت أمنية لى . . وكنت أريد أن أرى العراق وأعيش حياته الحاضرة . . ولكن الله عز وجل ثنى من عزيمتى فوقفت واعتذرت ، وكانت حجتى أن كتبى تأخذ كل جهدى ووقتى وأن السفر يعطل عملى من أجل البحث والتأليف .

وبقيت كما كنت .

ولكنى بالنسبة إلى السفر لليبيا ، لم أتردد ، وإن كنت لم أسافر مختاراً ولا محبا للسفر ولكنها مشيئة الله .

وكنت فى البيضاء . .

مدينة صغيرة من مدن برقة . الطريق إليها طويل . . تسير بنا السيارة من القاهرة إلى الاسكندرية ، فرسى مطروح ، فالسلوم ، فكابوتزو (مساعد) ، فطبرق فدرنة ، حتى ننتهى إلى البيضاء .

أراد لها حكومة ليبيا آنذاك أن تكون عاصمة تحل محل طرابلس ، فبدأت حركة البناء والتشييد فيها على قدم وساق .

كانت ليبيا دولة فقيرة ، واكتشف فيها البترول ، وبدأ استغلاله من عام ١٩٦٠ ، وبدأت تقفز بخطى واسعة نحو الرخاء والرفاهية ، وسافرنا إليها وميزانيتها نحو الثلاثين مليونا ، ولما غادرناها بعد ثلاث سنوات كانت ميزانيتها ثلاثمائة مليون من الجنيهات .

وعشت فى البيضاء ثلاث سنوات ، وأسرتى فى القاهرة . .

وجبت بعض مدن برقة : طبرق — درنة — سوسة — بنيغازى . . دون أن أتمكن من السفر إلى طرابلس .

وكان عبئى فى ليبيا شديداً ومرهقا : أقوم بتدريس عشرة مواد ، فى أكثر من ثلاث عشرة محاضرة فى الأسبوع ، وألفت كتبا كثيرة كانت من أجل ما ألفت من كتب . .

ومن بينهما : كتاب قصة الأدب فى ليبيا العربية فى ثلاثة أجزاء ، وكتاب دراسات فى النقد الأدبى ، وكتاب أبو عثمان الجاحظ ، وكتاب النقد العربى الحديث ومذاهبه ، وكتاب دراسات فى النقد الأدبى وغيرها .

كانت مرتباتنا فى ليبيا محدودة فى الفترة التى عشتها فيها .

ومع ذلك كان لهذا كله أثره البعيد فى تخفيف أزمتى المالية التى أرهقتنى وقتا طويلا .

وكنت أتمنى أن أستطيع بناء نفسى . وإخراج باقى التفسير : وأن أملك على القدرة التصرف والحركة والحياة . . ولكنى لم أستطع .

لقد عشت حياتى ، وأنا أجد يدى مشدوتين بقيود ثقيلة ، تمنعنى من الحركة والتصرف . . قيود حياتى وظروفى فيها .

وطالما دعوت الله أن يرد لى حريتى ، حريتى من أجل العمل ، ومن أجل البناء ، من أجل الصمود فى معركتى مع الحياة ، من أجل القدرة على أن أملك عمل كل ما أريد . .

ولكنى حتى اليوم وأنا أتجاوز منتصف العقد السادس من حياتى أشعر بأن هذه القيود لا تزال تغل يدى وحريتى عن البناء .

أهو الطموح الذى يجعل الأمل أكبر مما أقدر عليه من العمل .

أهو تحمل المسئولية الذى يجعلنى أتحمل أعباء كثيرة لايستطيع غيرى تحملها فى وقت واحد ، وفترة محدودة .

أهو إقدامى ومثابرتى وتصميمى الذى يصور لى المحال أمرا ممكن التنفيذ ؟

لا أدرى . .

وكل ما أريد أن أقوله إن حظ الإنسان فى الحياة متوقف على مدى حريته فى العمل والتصرف : وإنى عشت حياتى لا أملك هذه الحرية ، ليست لدى مقومات الحياة لم يعطنى عملى وكفاحى فيها شيئا من هذه المقومات جدى دون جدى دائما ، الحرمان يحلل حياتى بلون من الكآبة والعجز عن الحركة والتصرف ملء إهابى ..

إننى أدعو الله بكلمات معدودات :

— اللهم أعطنى حريتى ،

— اللهم أعطنى حريتى .

حرية الفكر ، حرية العمل ، حرية التصرف ، والقدرة على البناء .

— اللهم أعطنى حريتى .

— اللهم أعطنى حريتى .

حريتى فى أن أعيش قادرا على تحقيق أمنياتى وغاياتى فى الحياة .

إذا أردت كتابة بحث وجدت السبيل ميسرا لنشره .

إذا أردت عمل شىء وجدت المادة المعاونة على تنفيذه .

- اللهم أعطنى حريتى .

- اللهم أعطنى حريتى .

يارب العالمين .

- ٢ -

وفى البيضاء ألقيت ثلاث محاضرات هما من أجل البحوث والدراسات التى كتبتها :

- الإسلام فى قيادة الإنسانية .

- جماعة أبولو وأثرها فى التجديد فى الشعر الحديث .

- الثقافة الإسلامية .

وفى فترة عملى فى ليبيا :

- نال ماجد شهادة الابتدائية من مدرسة الأندلس عام ١٩٦٦ .

ثم دخل مدرسة الأورمان الإعدادية ، وهى التى نال منها الإعدادية عام ١٩٦٩ .

التـــاريخ الحزين

وعدت من ليبيا فى صيف عام ١٩٦٦ ، بعد انتهاء مدة إعارتى إليها . وبدأت العمل فى كليتى .

وحل عام ١٩٦٧ ، وفجأة إذا بى فى ٧ مارس ١٩٦٧ أعيش فى دائرة الظلام ، ويلفنى الظلام يوما بعد يوم ، وليلة بعد ليلة ثلاثة عشر شهرا ، حتى عاد القدر بى من جديد الى دائرة النور التى كنت قد خطفت منها .

وكان دعائى الدائم خلالها .

— اللهم هب لى الحرية .

— وهبها لكل الناس ، يارب الأحرار ، إنك على كل شىء قدير .

العائد من الظلام

وعدت من الظلام .

وبدأت عملى فى الكلية .

وسارت بى الأيام .

كفاح متصل .

عمل دائب .

جهاد من أجل الحياة ولقمة العيش .

وقضيت فى الكلية عام ١٩٦٨ ، وعام ١٩٦٩ ، أؤدى واجبى العلمى .

أنشر النور والعلم والعرفة .

أخدم رسالة الأزهر العلمية ، الأزهر الذى كتبت تاريخه الطويل فى ألف عام ، الأزهر الذى تسنم مشيخة الشيخ من مأمون الشناوى (توفى عام ١٩٥٠) ، ثم الشيخ عبد المجيد سليم (تولى المشيخة عام ١٩٥٠) ، ثم الشيخ ابراهيم حمروش (تولى الشيخ عام ١٩٥١ وأقيل منها فى فبراير ١٩٥٢) ، ثم الشيخ عبد المجيد سليم (عاد إلى المشيخة فى فبراير ١٩٥٢ وأقيل منها فى مارس ١٩٥٣) ، الشيخ محمد الخضر حسن (بقى فيها نحو عام) ، ثم الشيخ عبد الرحمن تاج (١٩٥٤ — ١٩٥٨) ثم الشيخ محمود شلتوت (١٩٥٨ — ١٩٦٤) ، ثم الشيخ حسن مأمون (١٩٦٤ — سبتمبر ١٩٦٩) ثم الدكتور محمد الفحام (سبتمبر ١٩٦٩ — حتى اليوم) .. الأزهر الذى

صدر قانون تطويره عام ١٩٦١ ، ودخل فى مرحلة جديدة إثر ذلك . . وتولى شئون وزارة الأوقاف والأزهر آنذاك د . محمد البهى وكان أول مدير لجامعة الأزهر ، وهو الذى وضع قانون التطوير ، ثم الوزير المهندس أحمد الشرباصى ، وعاد أحمد حسن الباقورى وزير الأوقاف السابق إلى تولى وظيفة مدير جامعة الأزهر عام ١٩٦٣ حتى سبتمبر عام ١٩٦٩ ، حيث خرج الباقورى منها وعين مكانه الدكتور بدوى عبد اللطيف ، وكان وزير الأزهر إبان ذاك هو د . عبد العزيز كامل .

وعشت داخل أروقة جامعة الأزهر ، فى عملى فى الكلية ، وكان عام ١٩٦٩ عام بناء جديد فى حياتى من بعد ما توقفت هذه الحياة عشرة أعوام (١٩٥٩ — ١٩٦٨) .

ففيه نلت وظيفة أستاذ فى الكلية ، وهى أعلى الوظائف العلمية .

وفيه قدر الله أن أسافر معاراً إلى المملكة العربية السعودية للعمل فى كلية اللغة العربية بالرياض فى الخامس والعشرين من أكتوبر عام ١٩٦٩ ومعى أسرتى وابنى ماجد . . الذى التحق بمدرسة اليمامة الثانوية فى الرياض طالبا بالسنة الأولى الثانوية فيها . .

أمام الكعبة

وامتطيت الطائرة لأول مرة إلى جدة فى مساء ٢٥ أكتوبر ١٩٦٩ — الرابع عشر من شعبان ١٣٨٩ هـ

وقبل أن أواصل السفر إلى الرياض ذهبت إلى مكة المكرمة لأداء العمرة .

دخلت مكة الحبيبة .

ودلفت إلى المسجد الحرام .

وطفت حول الكعبة .

وسعيت بين الصفا والمروة .

وأدركت الحقيقة كاملة ..

الحقيقة التى لم أدركها من قبل .

حقيقة التوحيد الكامل الذى جاء به الإسلام .

حقيقة ديننا العظيم المنزل من السماء .

حقيقة كفاح رسولنا الأعظم من أجل بناء عزة الإسلام ومجده وتاريخه وحضارته .

ثم عدت إلى الرياض .

وعشت عاما دراسيا فى شقة جميلة فى ميدان دخنة ، فى عمارة يملكها الحاج عبد المحسن النمر ؛ وهى شقة تقع فى الدور الثانى من هذا المنزل ، ورقمها هو ٨ ، وتطل على ميدان دخنة الشعبى الجميل .

وبدأت عملى وبحوثى ومحاضراتى فى الكلية .

وفى قاعة المحاضرات فيها ألقيت محاضرتى « خلود الإسلام » ومحاضرتى « التيارات الكبرى فى الثقافة الإسلامية والعربية » . وفى صحف ومجلات الرياض نشرت أجمل بحوثى ودراساتى .. ومن بينها :

التحيات لله

الصورة الأدبية فى القرآن الكريم

— حضارة الإسلام

— عمود الشعر العربى

وغيرهما . وكتبت قصائد عدة خلال إقامتى فى الرياض ، وتعرفت بأديب من أجل الأدباء السعوديين ، وهو الأستاذ عبد العزيز الرفاعى ، وهو من أصل مصرى ، وثقافته واسعة ، وقراءاته طويلة .. وفى بيته كانت تعقد ندوة أدبية أسبوعية كل مساء خميس .

شيخ الكلية عالم فاضل هو الأستاذ عبد الله عبد المحسن التركى ، والرئيس العام للكليات هو الشيخ محمد إبراهيم آل الشيخ الذى توفى فى أوائل ذى الحجة من عام ١٣٨٩ هـ - ١٩٧٠ م ، وخلفه فى وظيفته ابنه الشيخ عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم ، وهو عالم جليل ، وشيخ فاضل .

الأساتذة فى الكلية بينهم المصريون والسوريون والسعوديون .

الدراسة تسير فيها جادة مستمرة طول العام .

فى عيد الفطر ذهبنا إلى العمرة فى مكة المكرمة ومنها سافرنا إلى المدينة المنورة للزيارة ، وقضينا أجمل أيام العمر فى رحاب الرسول وفى مسجده العظيم .

— ليت أيامى كانت كلها جميلة كهذه الأيام .

— ليتنى ما عشت لا أنقطع عن العمرة والحج كل عام .

— ليتنى لا أحرم من السلام على رسول الله وخاتم النبيين فى كل موسم .

إنها فرحة الحياة .

الفرحة والحياة أمام الكعبة ، وفى رحاب رسول الله فى المسجد النبوى .

إلى عرفات

وجاء موسم الحج وذهبنا إلى مكة فاعتمرنا ، وخرجنا إلى منى وعرفات ، ووقفنا فيها ، ثم عدنا إلى منى وقضينا أيامنا فيها .

وعدنا إلى المسجد الحرام نطوف حول الكعبة ، ونعيش ساعات قلائل قبل أن نطوف طواف الوداع .

مئات الآلاف التى ترمى الجمار فى منى ، يا لهذا المشهد من مشهد عظيم .

مئات الآلاف التى تؤدى الصلوات فى جماعة فى المسجد الحرام ، يا لهذه الصورة الجليلة الخالدة من صور الموسم الكبير .

أيام كلها خير ، كلها بركة ، كلها إيمان وإشراق وطهر وصفاء ، ونور ، وجلال وجمال ، وقوة إيمان ، وصدق يقين .

وعشناها كأجمل ما تكون الأيام : أنا ، وزوجتى ، وابنى ، وشقيقتى .

ثم عدنا إلى الرياض ..

إلى القاهرة

وفى صيف عام ١٣٩٠ هـ - ١٩٧٠ عدنا إلى القاهرة ، وقضينا ثلاثة شهور كاملة فيها ..

وطبعت فى هذه الفترة القصيرة كتاب « فصول من الفكر المعاصر » ، وهو أحلى كتاب ، وفيه قصة حياتى وفكرى وكفاحى فى إيجاز .

وقد صدرت من قبل عنى كتب أخرى ..

- صورة من الفكر المعاصر - بقلم محمد فكرى عثمان أبو النصر .
- من كفاحنا الفكرى بقلم محمد رضوان أحمد
- من رواد الأدب المعاصر بقلم حليم مترى

واحتوت هذه الكتب كثيرا من ألوان حياتى ، وهى :

- بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى

— الشعر والتجديد

— مع الشعراء المعاصرين

— صور من الأدب الحديث

— الكتاب العربي — نشر رابطة الأدب الحديث

وفى القاهرة زرت مندوب الكليات القادم من الرياض للتعاقد مع الأساتذة ، وهو عالم جليل ، وشيخ فاضل ، وأستاذ ذو عقلية خصبة ، وهو الشيخ عبد الرحمن الدخيل .

إلى الرياض من جديد

— ١ —

وفى العشرين من سبتمبر ١٩٧٠ - ١٩ من رجب ١٣٩٠ هـ ..

عدنا إلى الرياض

وبدأنا العام الدراسى فيها

وبدأ ماجد دراسته فى السنة الثانية الثانوية فى مدرسة اليمامة ..

وبدأت الأحداث تتفاقم ..

— الاشتباكات العنيفة فى الأردن بين الجيش الأردنى والفدائيين ومقتل أكثر من عشرة آلاف فى هذه الاشتباكات .

— مؤتمر القمة من الملوك والرؤساء يعقد فى القاهرة من ٢٤ سبتمبر ١٩٧٠ .

— المؤتمر ينتهى إلى اتفاق بين الملك حسين ملك الأردن وبين ياسر عرفات زعيم الفدائيين .

— مؤتمر الأقطاب يختم جلسته يوم ٢٧ سبتمبر .

— الرؤساء يسافرون من القاهرة يوم الإثنين ٢٨ من سبتمبر ١٩٧٠

إلى بلادهم ، وكان آخرهم هو أمير الكويت الذى سافر فى الساعة الواحدة والنصف ظهر يوم الإثنين .

— فى العاشرة والنصف من مساء يوم الإثنين ٢٨ من سبتمبر ١٩٧٠ - ٢٧ من رجب ١٣٩٠ هـ تعلن الإذاعات العالمية وفاة جمال عبد الناصر فى السادسة والربع من مساء اليوم نفسه إثر إصابته بنوبة قلبية حادة .

— صحف العالم وإذاعاته تؤبن عبد الناصر — تشييع جنازة عبد الناصر . فى الساعة العاشرة من صباح يوم الخميس أول أكتوبر ١٩٧٠ - أول شعبان ١٣٩٠ هـ ، فى موكب رسمى وشعبى هادر حضره الكثير من الرؤساء والملوك ورؤساء الوزارات من مختلف أنحاء العالم ، ودفنه فى الثانية ظهرا فى مسجد عبد الناصر بكوبرى القبة .

— الصحف العالمية تعلق على جنازة عبد الناصر بأن مصر لم تشهد جنازة مثلها فى تاريخها الطويل .

— القاهرة تبدأ العمل من أجل اختيار رئيس جديد .

— أنور السادات أصبح منذ الخميس ١٥ من أكتوبر ١٩٧٠ رئيسا للجمهورية بعد استفتاء الشعب .

كان الله للإسلام والعرب ولمصر والمصريين .

— ٢ —

وفى هذا العام الدراسى كتبت أحلى قصائدى « أمم تطوى » ، وأحلى محاضراتى « غد الإسلام » ، وأحلى مقالاتى : بناة الحضارة - مذهب أدبى جديد .

وكتبت بحوثا جديدة بناءة ، منها : المكتبة التاريخية والجغرافية عند العلماء المسلمين .

وفيه أديت العمرة فى رمضان المبارك وزرت المدينة المنورة ووقفت أمام الرسول العظيم أستمد منه قوة إلى قوتى فى خدمة الإسلام والمسلمين .

وفيه أديت فريضة الحج ، ونعمت بتوفيق الله وعنايته ، وفيه تضافرت على آلاء الله ورعايته وكرمه ، فلله الحمد ، ولله المنة والشكر ، وله الثناء والحسن الجميل ..

مذكرات صغيرة :

— تزوج الخفاجى فى ٩ مايو ١٩٤٩ وهو فى الرابعة والثلاثين .

— من ١٩٤٦ شغل الخفاجى وظيفة مدرس فى كلية اللغة العربية .

— فى ١٩٥١/٥/٣١ رقى الى الدرجة الخامسة .

— فى ١٩٥٨/١/٣٠ « « « الرابعة .

— فى ١٩٦٤/١٠/٩ « « وظيفة أستاذ مساعد .

— فى ١٩٦٩/١/٣٠ « « « أستاذ .

— فى الساعة السابعة والنصف من مساء يوم الجمعة ٢ ربيع الثانى ١٣٧٢ هـ - ١٩ ديسمبر ١٩٥٢ م - ١٠ كيهك ١٦٦٩ ق .. رزق المـــؤلف بمولودة سميت باسم « وفاء » وكان ميلادها فى مستشفى جاردن سيتى ..

— توفيت كريمة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى فى الساعة الثالثة والنصف من صباح يوم الاثنين ١٢ ربيع الثانى ١٣٧٢ الموافق ٢٩ ديسمبر ١٩٥٢ ، وصلى عليها ودفنت ظهر اليوم نفسه بالمدافن الموجودة بداخل مسجد سيدى زين العابدين بالقاهرة بجوار مقام الست فاطمة ، وبجوارها مقام سيدى زين العابدين نفسه ولم يزد عمرها على عشرة أيام .

أمسية عن جمال الدين :

فى مساء الاثنين ٢٧ ربيع الأول سنة ١٣٧٧ هـ - ٢١ من أكتوبر سنة ١٩٥٧ : أقيم فى دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة حفل كبير لذكرى موقظ الشرق السيد جمال الدين الأفغانى ، وقد خطب فيه : صلاح الدين السلجوقى وأحمد الشرباصى وعبد المعز عبد الستار ومحمد عبد المنعم خفاجى ومحمد بدر الدين ومحمد البهى .

وكان المتفق عليه أن يحضر هذا الحفل متحدثا الشيخ محمد البشير الابراهيمى رئيس جمعية العلماء بالجزائر ، ولكن المرض الملح أقعده عن الحضور ، فارسل كلمة تلقى بالنيابة عنه .

من كلمات الخفاجي :

١ — كان بيد علماء الأزهر فى العصور الماضية مصائر الأمور فى مصر والعالم الإسلامى ، وكانوا هم القوة الكبرى التى تنطق باسم الشعب وتعمل له وتدافع عنه ، وكان الحكام يخشون بأسهم وسلطانهم الروحى فى قلوب الناس لأنه كان أقوى من المدفع والحديد . وكانوا هم الذين يختارون حكام الشعب ويمثلون إرادته ، وكانت مواقفهم الخالدة أمام الحاكمين تجل عن الوصف والتقدير . . كان عباس الثانى يقف صاغراً أمام شيوخ الأزهر الذى كانوا يجابهونه أمام الناس بكل مافى نفوسهم من إيمان وقوة . وكان محمد عبده يبدأ مجالسه الدينية فى الرواق العباسى بالتنديد بمظالم الحكومة ، وكان جمال الدين الأفغانى قبله يهز صرح الاستعمار هزاً عنيفا ، وكان العالم الأزهرى فى كل مكان موضع التجلة والاحترام من الجمهور والرؤساء ، يذهب إلى ديوان من دواوين الحكومة فى مظلمة لأحد أفراد الشعب فيخرج إليه الوزير أو وكيله يستمعون لقوله وينفذ ما يشير به من حق وإنصاف وعدالة .

فكيف ذهب هذا المجد الخالد مع الريح ؟ .

٢ — كانت الحرية خيالا وظلالا ، ثم استحالت آمالا وأحلاماً ، ثم صارت فكرة ومذهبا ، ثم صاغ محمد نجيب وإخوانه منها نشيداً عبقريا أنغامه القوة وإرادته الحياة ، نشيد يدعو إلى الإيمان بالشعب وإرادته ، والثقة فى الأمة والاعتزاز بمجدها وتاريخها ، والتصميم على تحطيم كل ما يعوق نهضتها وتقدمها وسيرها المتوثب إلى أهدافها الكريمة ومثلها العليا المرتجاة . ويعلن بدء عهد

جديد فى أرض الوطن غايته الحرية والإخاء والمساواة والديمقراطية الحقة والعمل لخير الفلاح والصانع والعامل والفقير والمسكين والمحروم فى ظلال النظام والاتحاد والبر والرحمة والتعاون بين الجميع مع إنكار للذات ، وبعد عن الأثرة ، وتقديس لمبادىء الاسلام ، مبادىء الحق والعدالة ومصلحة الوطن العليا . . واهتزت أرجاء الدنيا بهذا النشيد الرائع نشيد التحرر ، نشيد الحرية والكرامة والقضاء على أجيال من الظلام والتخلف والجمود .

الخفاجى فى رأى أبى شادى(١) :

نرانا أمام نهضة جليلة فى الأدب العربى تناولت أعرق مدارسه كدار العلوم والأزهر ، فنرى فى الأولى جهودا أصيلة موفقة داعية للاعجاب بها كتلك التى يقوم بها إبراهيم أنيس وحامد عبد القادر فى فقة اللغة وفلسفتها وعلم النفس الأدبى . ونرى فى كلية اللغة العربية بالأزهر نظيرة لها كمثل مايقوم به محمد عبد المنعم خفاجى الذى شغـــل بعلم الأدب وبالنقد الأدبى خاصة .

والأستاذ خفاجى ظاهرة فذة شائقة فى الوراثة والاطلاع والاستقراء والإنتاج فهو سبط الأديب الكبير الشيخ نافع الخفاجى ، وهو من أسرة

---

(١) من حديث طويل للدكتور أحمد زكى أبو شادى ـ أذيع من صـــوت أمريكا يوم ١٤ مايو ١٩٥١ ، ونقلته عنها محطة الإذاعة البريطانية العربية ـ ومن رسالة لأبى شادى الخفاجى بتاريخ ١٩٥١/٢/١٨ يقول فيها :

« ما من كتاب أرسلته إلى إلا وهو موضوع تنويهى وتعليقاتى فى محاضراتى أومقالاتى أو إذاعاتى حسب المناسبات ، مثال ذلك تنويهى بك فى مقال كتبته بالإنجليزية عن الأدب المصرى المعاصر ، لمجلة (شئون الشرق الأوسط) فى نيويورك .

بنى خفاجة التى تنتمى إلى أصول عربية قديمة ومنها الأمراء الخفاجيون فى إقليم الكوفة، والأمراء الخفاجيون بحلب، ومنهم الأمير ابن سنان الخفاجى الحلبى، ومن أشهر النابغين فى مصر من الخفاجيين الشهاب الخفاجى المصرى.

وهذا الرجل الذى يحمل أعلى شهادات الأزهر العلمية (وهى شهادة الأستاذية فى الأدب والبلاغة التى تعادل «الدكتوراه» من الجامعات السامقة كالسوربون مثلا)، والذى أخرج حتى الآن العديد من المؤلفات النفسية فى فنون الأدب، والذى يتولى أستاذيته بكلية اللغة العربية فى الأزهر، والذى يشغل ليل نهار بالمطالعة والتأليف حتى قيل إنه لم يعرف أزهرى قديما ولا حديثا أنه اطلع مثل إطلاعه على مئات الكتب القيمة من مخطوطة ومطبوعة، هذا الرجل العلامة الموهوب الذى يعتز بالتراث العربى اعتزازا كبيرا، ويعمل من أجله بكل طاقاته القوية، هو مثار تقديرنا وإعجابنا وفخرنا معا.

وإنه لعسير أن يختار المرء كتابا من كتبه للعرض فى مجال الحديث عن الأدب العربى، نظرا لكثرتها وتنوعها متناولة جميع فروع الأدب. والأستاذ خفاجى ليس لغويا ولا أديبا فحسب، بل هو شاعر أيضا، ولذلك — إلى جانب ثقافته الواسعة التى تلتهم كل معرفة ميسورة — كان طابع كتابته شعريا جميلا مع الحرص على الدقة العلمية فى الوقت ذاته، ولذلك نالت تصانيفه احتراما عاما فى جميع الأوساط الأدبية ببلاد العرب وفى دوائر الاستشراق، وبغض النظر عن موافقته على آرائه أو مخالفته فيها.

بعض كتب قدم الخفاجى لها :

١ — علم أصول الفقه — عبد الله أبو النجا .

٢ — تاريخ الكعبة المعظمة .

٣ — عمارة المسجد الحرام .

٤ — الأدب الحديث فى نجد : بقلم محمد بن سعد بن حسين وتقديم الخفاجى — تحت الطبع .

بعض كتب للخفاجى :

١ — سلسلة كتب فى القواعد العربية .

٢ — مختارات من الأحاديث النبوية — ٣ أجزاء .

٣ — سيرة رسول الله — ٤ أجزاء .

٤ — الخفاجيون فى التاريخ .

٥ — قصص من الحياة .

٦ — أحلام السراب — شعر —

القسم الثاني

صورة من الحياة

أصدقائى الحميمون

أصدقائى الحميمون الذين حالفونى وعاشوا معى طيلة حياتى .. اثنان .. أثنان فقط .

أولاهما الكتاب .

وثانيهما الفقر .

والأصح أن أقول إن ثانيهما هو الدين .

أما الصديق الأول .

وهو الكتاب .

فقد عشت معه من طفولتى حتى اليوم .

لم أتركه ولم يتركنى فى يوم من الأيام .

وكثيراً ما كنت أستعير الكتاب لأنى لا أملكه .

وكثيراً ما كنت أشق على نفسى فأتملك كتابا مهما آذنى ثمنه .

وكثيراً ما كنت آخذه من بيت عمى أو خالى فى طفولتى لأقرأه ولو بالقوة .

كان صحيح البخارى فى منزل عم من أعمامنا .

طبعة رائعة لم أشهد مثلها حتى اليوم .

وقد تكون طبعة من طبعاته فى الآستانة التى كان عمى يزورها فى شبابه .

وأحببت الكتاب وأحببت قراءته .

واستأذنته فلم يأذن بأخذه لقراءته وإعادته .

فذهبت وأخذته دون إذن وفى غيبته .

ورأى الكتاب غير موجود .

وأيقن أنى أخذته .

فحضر إلى منزلنا .

يقول :

ياحرامى . . هات الكتاب .

وقلت له دعه لدى أسبوعا .

فلم يقبل .

وأخذه وأنا أذرف الدموع .

وأقول ليتنى استطعت قراءته .

وكانت سنى إذذاك نحو العاشرة .

وهكذا عشت .

لا أجد القدرة ولا العون حتى على القراءة ، وكتب أديب عنى فى بعض الصحف اليومية — الجمهورية — بعنوان « يتمنى أن يموت وعلى صدره كتاب » .

وأذكر الجاحظ مفخرة العقل العربى .

كان فى طفولته فقيرا محروما مثلى .

وشغل نفسه بحضور حلقات العلم فى مسجد البصرة الجامع وأمه تريد له أن يكون عاملا ليكسب قوته بيده ، ويحافظ على شرف بيته بالعمل ، وهو غير مقتنع بالعمل ، وكل اقتناعه هو بشىء واحد بالعلم والكتاب .

وجاء إلى أمه يوما يقول لها : إنى جائع .

فدخلت ووضعت بعض الكتب فوق طبق وقالت : تناول طعامك .

وصاح : ماذا ؟

فقالت له : أليس هذا هو غذاؤك المفضل لديك ؟

فذهب مهموما ، وجلس فى البصرة مهموما حزينا باكيا .

ورآه أحد وجوه البصرة .

فرأى فيه طفلا محروما شقيا دامع العينين فاتجه نحوه يسأله : ماشأنه ؟ فقص عليه قصته .

فأخرج من جيبه خمسين دينارا وأهداها له

وذهب بها الجاحظ الطفل إلى السوق ، فاشترى ، ما كان يحب أن يشتريه ، وأتى الحمالين فحملوا ما اشتراه ، ووصل إلى المنزل ، ودق الباب

وفتحت له أمه ، وشاهدت المنظر الغريب الذى شاهدته : ابنها والحمالون من خلفه وأمتعة كثيرة معهم .

فصاحت متعجبة : أى شيء هذا ؟ ورد عليها ابنها :

إنه من الكتب التى قدمتها لى على الطبق وأنا جائع . . يا أماه .

أما صديقى الثانى فقد كان الفقر الذى لازمنى طيلة حياتى حتى اليوم .

وإذا ما أردت الدقة فقد كان شراً من الفقر وهو الدين .

لا أذكر أنى عشت شهراً واحداً دون أن أستدين منذ تحملت مسئولية نفسى حتى اليوم .

ودون أن أكون مدينا لأحد .

حتى هذه اللحظة . . الدين أكبر أصدقائى .

وليس ذلك عن إسراف .

ولا عن ترف .

ولا عن شيء من سوء التصرف

لكنه كثرة ما أجشم نفسى من حمل أعباء الناس وهمومهم ، ومد يد المواساة والعون لهم مع قلة مواردى لأنها محدودة .

وما أصدق الشاعر القديم الذى يقول ، وأظنه تأبط شرا :

أقسم نفسى فى نفوس كثيرة   وأحسو قراح الماء والماء بارد

ولا زلت أذكر وأنا طالب فى كلية اللغة عبر أيام شقية تعسة عشتها ، كم كنت أوثر فى أول الشهر أن أكون أول ساكن يدفع أجرة الشهر لصاحبة البيت « حياة » .

وكانت حياة امرأة عجوزا ، لازوج لها ولا ولد .. وكانت ثرية فى ظنى ، تملك عدة بيوت وتعيش منها ، ولا تصرف شيئا إلا القليل من مواردها .

وكانت فى أول يوم من أيام كل شهر تجىء إلى المنزل الذى نسكنه . وتقف فى الشارع وتصيح بملء فيها :

الإيجار ياخفاجى

وكنت أكاد أفضل أن تنشق الأرض حينئذ فتبتلعنى ، أو أن أصعد إلى السماء فلا ترى وجهى ولا تسمع حسى .

وتأخذ فى الصياح :

الإيجار ياخفاجى

وأنا أكتم أنفاسى

حينا لتعلم أنى خارج المنزل ، وحينا جبنا منى لأنى لا أقدر على أن أواجهها بأنى مفلس .

وحينا لأنى لا أستطيع أن أقول لها غدا وكم كانت «حياة» هذا كما يقول المثل العامى توريني النجوم فى عز الظهر .

وفى بدء تعرفى إليها كنت طالبا فى الكلية وكنت أبحث عن سكن فى حارة السقايين .

وهذه الحارة لها شهرة كبيرة ، ويضربون بها المثل على ألسنة الناس ، فيقولون : إنت بتسقى الناس فى حارة السقايين .

وفجأة وجدتنى أمام بيت صغير جدا وجميل جدا إنه كما رأيته تحفة فنية رائعة .

إن سكنى فيه سوف يعطينى القدرة على القراءة والكتابة .

وهو فى الوقت نفسه قريب إلى كليتى التى تقع فى البرامونى

لابد إذا من إيجاره مهما تجشمت من أهوال .. إنه بيت من دورين .

كل دور حجرة واحدة بمرافقها

وله باب مستقل

اسوف أسكنه كله

حجرة المذاكرة ، وحجرة للنوم

ودلنى الناس على صاحبته حياة

وقلت حسنا

يبدو أنها شابة جميلة

فلأذهب إليها

فإذا لم تفق فى المنزل معها

فلربما أسعدنى الزمن بمشاهدة جمالها

وذهبت إليها

فإذا عجوز فى الثمانين

الشيب يجلل رأسها

وتلبس لباسا أسود يبدو أنه ربما لم تغسله يد منذ شهور

ومدت يدها

فمددت يدى

وأنا لا أقدر على أن أمدها نحوها خوفا من أن تتلوث بجراثيم القذارة

ـ وقلت لها : أريد أن أؤجر البيت

ـ وردت : حسنا

ـ وبكم إيجاره يا عمة حياة ؟

ـ إيجاره سبعون قرشا ، وكان ذلك عام ١٩٣٧ والجنيه آنذاك يعادل عشرة جنيهات اليوم فى قوته الشرائية

ـ موافق

ـ هات الفلوس

ـ خذى

ـ هذا هو المفتاح واذهب فهات عزالك

ـ بعد غد إن شاء الله

ـ أنت حر ، ولا إن شاء الله ولا غيره

ـ طيب يا عمة حياة ـ اكتبى العقد

ـ لا ، إنت الوحيد الذى يطلب منى عقدا أنت لا تأتمنى ، خذ فلوسك

ـ لا يا عمة حياة ، وحياتك أنا ما فكرت فى هذا أبدا أنت أمينة جدا ، ومن الذى لا يأتمنك ـ ليت الفلوس كانت أكثر حتى يجوز لك أن

تتصورى أنى إنما طلبت العقد لأنى لا أئتمنك ، أما والمبلغ كله سبعون قرشا فكيف تتصورين ذلك ، طيب يا عمة حياة اكتبى وصل باستلام المبلغ .

— ورمت عمة حياة المبلغ على الأرض وقالت : خذ فلوسك أنا لا أريد أن أؤجر لك مادمت مرة تطلب الوصل ، ومرة تطلب العقد

فجمعت الفلوس ، ونظفتها من التراب ووضعتها فى يدها ، وقلت لها : طيب لن أطلب منك شيئا .. مع السلامة

وردت حياة : مع السلامة

وسافرت إلى قريتى

وأحضرت أمتعتى وأختى

ووصلت نحو المغرب من السفر

وذهبت إلى المنزل فى حارة السقايين وفتحت باب البيت

فإذا بامرأة تطل من فوق : حرامى والا إيه ، انت جايب المفتاح دا منين

وقلت لها : والله أنا أجرت البيت من حياة وأعطتنى المفتاح

فقالت : مش معقول

نحن أجرناه منها اليوم وسكنا فيه !!!

الكتاب والدين ..

هذان هما صديقاى الحميان ، أو أجل أصدقائى

أما بقية أصدقائى فلكم أود أن أفرغ لكتابة كتاب عنهم بعنوان قريب من عنوان كتاب صديقنا الكبير جعفر الخليلى الأديب العراقى المشهور : هكذا عرفتهم

أجل أساتذتي

وكم لي من أساتذة

وكم أفدت من شيوخ ومعلمين كبار وصغار ولكن أجل أساتذتي أثنان

أفدت منهم الكثير

وأخذت عنهم الكثير

ووجهوني في حياتي توجيها أحمده الآن لهم كل الحمد

وأولهما : أمي

وثانيهما : الفقر

أما أمي فكم حدثت قارئي عنها

سيدة ريفية صالحة . مكافحة ، اسمها شوق نافع الجوهري الخفاجي .

كانت لا تفوتها صلاة الفجر ولا صلاة في وقتها ، وعنها أخذت المحافظة على الصلوات ، والمحافظة على المواعيد . وحب النظافة ، وحب النظام .

وكانت محسنة حتى بما لا تملك ، وبآخر ما تملك ، وتعودت تقليدا لها أن أحمل أعباء الناس ، وأن أفكر تفكيرا إنسانيا خالصا ، وألا أنظر إلى الأمور بمنظار ينظر الناس به ، من المال أو الحسب أو التعالي على الناس .

فالرجل الذي يزرع لنا الأرض ، وكان من عبيد أسرتنا القدماء يوم كان هناك عبيد ، وهو أسود من أصل سوداني ، واسمه مبروك ، أناديه : يا عم مبروك .

والخادمة التى تخدمنا أناولها الشىء لتحمله وأجده مرهقا لها فأقول لها: هات لأحمله معك . .

وهكذا . .

وكانت تحمل مسئولية أبنائها مسئولية كاملة ، فتعلمت منها تحمل المسئولية منذ طفولتى .

وكانت تتمنى أن تسعد الناس وعنها أخذت ذلك . .

وفى يوم من الأيام ضيعت مفتاح حجرة من حجر البيت وأنا طفل . .

وأيقنت أن أمى ستتعب فى فتح باب هذه الحجرة وستتكلف مصاريف حتى يأتى النجار ليفتحها .

فأخذت أبكى لأنى لا أحب أن أشق أمى ولا أحدا غيرها .

وجاءت أمى لتشاهدنى أبكى ، فأخذت تخفف عنى ، وتقول : لى لماذا كل هذا ؟ .

وكانت أمى حكيمة مجربة تنظر إلى الحياة نظرة عميقة ، وكان أبوها الشيخ نافع عالما كبيرا ، وربما كان له أثر ضخم فى تفكيرها ، وقد أفدت منها حكمة وتجربة وخبرة بالحياة . . وكثيرا ما كانت ونحن أطفال تجمعنا حولها فى الليالى المقمرة فى الصيف فوق سطح المنزل لتقص علينا أساطير وقصصا وحكايات شعبية تفوق فى غرابتها كل خيال كقصة المدينة المسحورة ، أو الجنى المارد الذى دخل القمقم وألقى به فى البحر ، أو قصة أبى زيد الهلالى ، أو قصص أجدادنا الغريبة فى رعاية الجار واليتيم والمسكين .

وكانت تكرم من تتوسم فيهم الخير والصلاح كرما كثيرا . .

ومن بينهم الشيخ محمد عبد الغنى رحمه الله ، وكان فلاحا ساذجا صالحا ذا إلهام روحى عجيب ، فكانت تقدم له الطعام كلما استطاعت .

وكان لى ابن خالة مثله فى السذاجة والتقوى والتعفف ، وكانت ترسلنى لأناديه ، كلما كان عندنا طعام مناسب ، ليتناول معنا الطعام . . .

إنها أمى وأستاذى الأول رحمها الله .

أما أستاذى الثانى فهو الفقر .

وقد عودنى الطموح والجد والعمل وعدم الاتكال على أحد ، وتحمل المسئولية ، وعدم التفريط فى الواجب ، مهما كلفنى ذلك من مشقات .

وكنت أومن ، بقول الرومانسيين : العبقرية غذاؤها الألم .

وفى سنوات أقبلت على أدب المنفلوطى أقرؤه بنهم وشوق شديدين ، وأسهر مع كتبه ، أقرأ وأبكى ، لأنه كثيرا ما كان يصور كفاح المحرومين من أجل الحياة فى أكثر كتاباته .

وهكذا كانت حياتى . . .

النور المتجدد

— ١ —

عشت فى بيئة الأزهر الثقافية منذ عام ١٩٢٧ حتى اليوم ، وهى بيئة ذات تاريخ ثقافى جليل ، أضواؤها الثقافية جذبت شباب العالم إليه خلال العصور والأجيال . .

فى أيام دراستى كان معنا فى فصول الدراسة فى الكلية كثير من شباب العالم الإسلامى من الصين وأندونيسيا والفيلبين وأفغانستان والهند وباكستان وإيران والعراق وسوريا وفلسطين والأردن واليمن والسعودية ولبنان وليبيا والسودان والجزائر ومراكش وتونس ومالى وغيرها .

وفى أيام دراستى الأولى فى الأزهر كان أئمة علمائه طبقة من الفحول من مثل الظواهرى والمراغى والشيخ بخيت المطيعى والشيخ محمد الخضر حسين التونسى ويوسف الدجوى ومحمود أبى العيون وإبراهيم حمروش ومأمون الشناوى وعيسى منون الفلسطينى ومحمد الغمراوى وإبراهيم الجبالى وحامد محيسن وسواهم، وهذه الطبقة كان لهادويها فى المجتمع المصرى وكلمتها النافذة إبان فترة الثلاثينيات من هذا القرن ، وكان لرأيها كل الاحترام فى دوائر السياسة ، وكان الفكر المصرى متأثرا بها كل التأثر رغم من وجود الاحتلال وأذنابه والمثقفين بثقافات الغرب فى مصر ، وكانت وظائف الدولة شبه محرمة على الأزهريين كما أراد الاستعمار إلا فى محيط الأزهر ووظائف الإمامة فى المساجد .

وكان الفكر الإسلامى داخل الأزهر قد بدأ يتأثر بأفكار محمد عبده التى كانت ترمى إلى الجمع بين حضارة أوربا الفكرية وحضارة الإسلام الروحية ، وكان المراغى منذ بدء الربع الثانى للقرن العشرين يقف فى تيار الأفغانى ومحمد عبده ومن خلفه فريق من العلماء ، ويقف فى الصف المحافظ كثير من العلماء وفى مقدمتهم الشيخ الظواهرى .

وكانت مراكز القوة السياسية فى مصر تحاول جاهدة أن يكون لها أنصار داخل أروقة الأزهر بين العلماء والطلاب : السراى من جانب ، وكل حزب من الأحزاب السياسية من جانب آخر . . وكثرت هذه التنقلات فى داخل الأزهر ، وكنت أمقتها وأمقت المنتمين إليها ، وأحاربها ، وأحارب الذين يؤيدونها ، كالمراغى ودراز وعبدالجليل عيسى وغيره ، وعشت مستقل الرأى بعيدا عن هذه الأحزاب والتكتلات فى داخل الأزهر .

وفى عام ١٩٤٣ ، وكنت فى الدراسات العليا كتبت محاضرة عن الأزهر المعاصر وألقيتها فى المدرج ، واختلفت حولها الآراء : فريق الشيخ

المراغى فهمها على أنها نقد له ، وفريق الشيخ عبد المجيد سليم ومن بينهم الشيخ محمود شلتوت فهمها على أنها نقد له ، وحاول كل فريق أن يستميلنى إليه ولكنهم فشلوا . . وكانت المحاضرة نقدا للجميع ، لأنى لم أكن أوثر بمودتى أحدا ينتمى إلى الأزهر ويقيم بداخله التكتلات السياسية والحزبية .

وفى أبريل عام ١٩٤٤ كانت هناك فى داخل مدرج كلية اللغة العربية محاضرات الامتحان التمهيدى للعالمية من درجة أستاذ ، وحضر المراغى ، وبدأ يدخل المدرج ، وكنا نحن الطلبة نملؤه ، وكنت فى الصف الأول ، ودخل المراغى ووقف الجميع له ، وبقيت أنا جالسا حيث كنت ، وجابهنى المراغى بقوله : السلام عليكم وهو يمر من أمامى ليجلس فى مقاعد لجنة الامتحان ، وكان آنذاك شيخا للأزهر وشخصية أسطورية ضخمة ، وأجبته : وعليكم السلام وأنا جالس ، ولاشك أن ذلك كان تصرفا شديدا ، وكان دليل صلابة واعتداد برأيى فى أنه ليس بجدير بعالم الدين فى الأزهر .. أن يتصرف تصرفا حزبيا أو شبه حزبى بحال من الأحوال .

وكانت الثقافة الأدبية داخل أروقة الأزهر واسعة ، وبخاصة بعد قيام كلية اللغة العربية ، وصدى أسماء أدباء الأزهر ضخم وقوى ، كالشاعر محمد الأسمر ، والشاعر الشيخ عبد الجواد رمضان والشيخ عبد الفتاح بدوى والشاعر الشيخ أحمد شفيع ، وكالعالم الأكبر الشيخ إبراهيم محروس ، ومثل سيد بن على المرصفى ، وسليمان نوار ، وإبراهيم الجبالى ، وغيرهم من علماء اللغة والأدب ، ومن الشعراء داخل الأزهر طلابا وأساتذة ، وخارج الأزهر من علماء الأزهر ومن بينهم الشيخ حسن القاياتى ، وابن خالى الشاعر المجيد الشيخ نافع محمد نافع الخفاجى .

وكان أدباء مصر فى أغلبهم من الذين خرجوا من أروقة الأزهر أو تعلموا على أيدى أساتذته .

أما الثقافة الإسلامية والعلمية فى الأزهر فحدث عن عظمتها ولا حرج، وعن أعلامها من الأحياء والأموات فى عصرنا ، وكان من أضخمهم حياة: المراغى والشناوى وحمروش وعبد المجيد سليم وشلتوت ومحمد عرفة ، وسواهم .

وفى هذا التيار الثقافى نشأت وعليه تعلمت ، ومنه تخرجت ، حتى اكتمل عقلى ، وأتممت تعليمى ، ونلت شهادة الأستاذية من قسم البلاغة والأدب فى آخر المطاف :

وكان عميد كلية اللغة العربية وقت تخرجى ورئيس لجنة مناقشة رسالتى هو حامد محيسن ، وكان عالما ضليعا فى علوم العربية ، وله أسلوبه وأدبه ومؤلفاته رحمه الله . . .

— ٢ —

وكنت أرتاد ندوة العالم المصرى الكبير القانونى الأشهر الدكتور عبد الحميد بدوى باشا ، عضو محكمة العدل الدولية ، ووزير الخارجية المصرية سابقا ، وعضو المجمع اللغوى فى مصر .. وهو من أساطير الفكر المصرى المعاصر ، وكان فى حديثه ومنطقه وفكره المتجدد وآرائه العميقة حول مشكلات الحياة يقف دائما مع القيم الإنسانية والحضارية ومع المنهج العقلى العميق المستمد من دعائم الثقافة المصرية المتجددة ، وكان من رواد ندوته الكثير من رجالات الدين والقانون والاجتماع والفكر فى مصر ، وقد كتبت عنه دراسة نشرت فى كتاب « فصول من الفكر المعاصر » .

واتصلت بأحمد لطفى السيد مدير مجمع اللغة العربية والفيلسوف المصرى الأكبر بصلات وثقى من الفكر واللغة والأدب .

وكنت دائم التردد على ندوة شيخ الأزهر الشيخ محمد مأمون الشناوى فى داره فى الحلمية الجديدة . وفيها يجلس كبار العلماء فى الأزهر وغيرهم ، وعلى ندوة الشيخ ابراهيم حمروش شيخ الأزهر فى داره فى القلعة وكان يتردد عليها علماء الأزهر والمجمعيون من العلماء ، وكان فى مقدمة روادها العالم اللغوى الكبير الشيخ محمد النجار أستاذى فى كلية اللغة العربية فى مادة فقه اللغة وعضو المجمع اللغوى ، والأستاذ محمود فرج العقدة زميلى فى الدراسة ، والشيخ أحمد عمارة أستاذى فى كلية اللغة العربية وعميد كلية اللغة العربية فيما بعد ، وغيرهم .

وزرت مختلف الندوات الأدبية فى القاهرة واشتركت فى الحديث فيها : ندوة الشيخ محمد سرور الصبان الوزير السعودي ، وكان يعقدها فى القاهرة فى داره فى المعادى ثم فى داره فى مصر الجديدة ، وندوة الأصفياء التى كان يشرف عليها الشاعر اللبنانى المجيد المرحوم محمد على الحومانى ، وكان يعقدها فى دور أعضائها بالتناوب ، وندوة العشيرة المحمدية بباب الحلق ، وندوة جمعية الشبان المسلمين بالقاهره ، وكنت أتحدث فيها فى مختلف المناسبات ، وكان يشرف عليها لفترة طويلة صديقى وزميلى الدكتور أحمد الشرباصى ، وندوة جمعية الشبان المسيحيين وكان يشرف عليها صديقى الاستاذ حليم مترى ، وندوة جماعة العروبة ويشرف عليها الشاعر خالد الجرنوس أولا ، وبعد وفاته أشرف عليها الشاعر شمس الدين ، ثم الشاعر الربيع الغزالى وندوة كامل كيلانى ، وغيرها .

وزرت ندوة الوزيرين ابرهيم دسوقى أباظة ، والمهندس أحمد الشرباصى ، وندوة الباقورى وندوة شلتوت ، وندوات أخرى كثيرة .

ومن قبل كانت ندوة المقتطف أهم الندوات الأدبية التى اشتركت فيها ، ثم ندوة رابطة الأدب الحديث .

وكان ذلك كله يؤثر فى مجرى حياتى الأدبيه تأثيرا كبيرا .

التحدى الكبير

وعشت فى عصر التحدى الكبير التحدى الذى مثلته الحرب العالمية التى ولدت فى أعاصيرها ، ومثلته ثورة ١٩١٩ احتجاجا رائعا وإباءا شامخا ضد الاحتلال الانجليزى فى بلادى ، ومثلته ثورة الشعب عام ١٩٣٠ على القوة الحديدية فى مصر ، وعام ١٩٣٥ على القصر والاحتلال وأعوان القصر ، ومن ثم ثار الأزهر على شيخه الكبير الشيخ محمد الأحمدى الظواهرى لالتصاقه بالقصر وسياسته ؛ ومثلته كذلك ثورة الشباب الوطنية عام ١٩٤٦ التى سرت فيها فى أسيوط مع الشباب من أبناء معهدى وكدت أموت فيها برصاص الجند ، ثم مثلته ثورة ١٩٥٢ التى قامت ضد مشيئة القصر والاحتلال .

التحدى الذى مثلته فى تزعمى عام ١٩٣٦ وما بعدها لحركة الانتصار للشعب الليبى فى ثورته ضد الاحتلال الإيطالى فالفنا لجنة فى الأزهر لمناصرة قضية الشعب الليبى كنت رئيسها وكم أصدرت خلال ذلك من بيانات قوية ملتهبة وطنية وحماسا . ثم فى قيادتى الثقافية لجموع الشباب السودانى من طلاب العلم فى جامعات القاهرة ، فتوليت رياسة شرف اللجنة الثقافية بالنادى السودانى فى القاهرة منذ عام ١٩٤٦ ، ونظمت فيه مواسم ثقافية حافلة كنت من أظهر المتحدثين فيها ، كما توليت قبل ذلك رئاسة شرف اللجنة الثقافية للنادى الليبى فى القاهرة وهو نادكونه شباب الجامعات المصرية من أبناء ليبيا العربية خلال الحرب العالمية الثانية وكان فى أول شارع القلعة (محمد على) من جهة الرفاعى ، ثم انتقل بعد ذلك إلى أماكن أخرى .

وقد عشت وفلسفتى هى من إلهام هذا التحدى الكبير ، فتحديت الفقر ، الذى كاد يحول بينى وبين التعليم ، وتحديت رغبات الشباب وأقبلت على

العلم والقراءة بنهم شديد ، وكم كنت أسهر الليالى الطوال أستضىء بنور سراج صغير ، أقرأ بالليل وأنا طالب فى الابتدائى على ضوء (لمبة غاز) ضئيلة ، وأقرأ كذلك وأنا طالب فى الثانوى لا أمل القراءة ، وكذلك وأنا طالب فى الكلية ، لا أسأم المطالعة والكتاب ، بل أراهما أجمل لذاتى فى الحياة . .

وتحديت كل معوقات الطموح فى نفسى ، فسرت فى الحياة أنشد أرفع الغايات ، وأنا لا أملك من مقوماتها وأسبابها شيئا .

وأنفت أن أعيش على ما يعيش عليه غيرى من القنوع بأصغر الآمال، كما أنفت أن أعلل نفسى بما يعلل غيرى به نفسه من صغار المطالب ، وكأنى كما يقول الشاعر محمد السنوسى فى ديوانه الأغاريد من قصيدته « ياربيع الحياة » يحدث عن نفسه :

وهى ترنو إلى الحياة بعين
تتحدى الأسى بغير دموع
أصلها ثابت ومن كرم الأصـ
ـل صراع الردى بغير خضوع

وكما يقول هذا الشاعر نفسه فى ديوانه الأغاريد أيضا :

لى وإن كنت كقطر الطل أصفى
قصفة الرعد وإعصار السواقى
أتحاشى الشر جهدى فإذا لج فى عسفى تحداه اعتسافى
خلق ورثنيه « أحمد » فجرى ملء دمائى وشغافى

ولقد كنت جريئا غاية الجرأة حين تحديت الشيخ المراغى وأنصاره وكان فى يدهم كل شئون الأزهر ، وأنا بعـــد ما أزال طالبا فى الدراسات العليا ؟ وتحديت الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر لأنه فرض على الأزهر فرضا ، وتحديت الشيخ عبد المجيد سليم ، والشيخ

عبد الرحمن تاج وهم من مشايخ الأزهر والدكتور محمد البهى وكان وزيراً للأزهر ومديرا لجامعة الأزهر لأنهم ما كانوا قادرين على عمل شيء للأزهر، وتحديت الشيخ شلتوت وهو شيخ للأزهر لأنه كان يهرف بما لا يعرف ويقول فى السياسة مجاملة وتملقا كما يراد منه . وتحديت الشيخ عبد الجليل عيسى شيخ كلية اللغة العربية أول تعيينى مدرساً فيها ، وتحديت من قبل الشيخ عبد الجواد رمضان وأنا طالب بالسنة الأخيرة من الدراسة العالية ، وتحديت كثيراً ممن تحدونى ومن غيرهم ، وكان من بينهم الأستاذ محمد هاشم عطية ، والشيخ ، حامد محيسن ، وسواهم .

هكذا كانت فلسفتى دائما الطموح والتحدى والوقوف فى الأعاصير موقف الشجاع الراسخ الإيمان بالنفس . . ولقد ذهبت إلى الشيخ الشناوى رحمه الله وقدمت له استقالتى أوائل عام ١٩٤٨ ، لأنه لم ينقلنى إلى كلية اللغة العربية حينذاك ، وكان ذلك حقا لى ولشهادتى التى أحملها . .

أحياء خلف الظلام

— ١ —

رأيتهم .

وعشت معهم شهوراً طوالا .

الباب الموصد .

فى الحجرة الكئيبة الموصد بابها بالليل والنهار ، ليقطع كل صلة لهم بالحياة .

ليس هناك غير ثقب صغير فى الباب .

ومن المحرم عليك النظر منه عبر الدهليز .

والباب الحزين يفتح عليك عدة مرات فى اليوم لمدة دقائق

ثم يغلق ، وتضيع بإغلاقه معالم الحياة أمام ناظريك ، ويتلاشى الكون الكبير ، ليستحيل إلى مأتم مظلم يعذبك مرآه والحياة فيه بالليل والنهار .

وتسمع بأذنك أصداء الحياة بعيدة عنك وتحس أن الربيع القادم بأزهاره ووروده هو خصم لك ، وحرب عليك .

وتعيش في كآبات كثيفة ، لاتدرى أأنت سائر إلى الحياة أم إلى الموت .

ـــ ليس بينك وبين الأحياء صلة .

ـــ وآلك لا يعرفون لك مسربا ، ولا يدرون إن كنت من الأحياء أم مع عالم من في القبور .

ياليت الظلام ينقشع .

ياليته لا يكون على الحياة ظلام أبدا .

والحجر ـــ التي تتراءى لك أشباحها من بعيد عبر ثقب الباب ـــ حزينة مثلك ، وخلفها أشباح يعيشون في الظلام ، ولا يعرفون أهم من الأحياء أم الأموات .

وتجلس تارة وتقف أخرى وتنام حينا وتستيقظ حينا آخر ، والأيام تمضى ، وضجيج الحياة تسمعه من بعيد يدوى في أذنك .

وقد انقطعت صلتك بالحياة .

وعبر الدهليز يقف شياطين غلاظ شداد وكأنما خلقوا من النذالة والخسة والوحشية .

لا حياة . .

ولا حركة .

ولا أثر لحياتك أنت وأنت مقيم خلف الظلام ، وقد لا تغيب عن آذانك صيحات الألم الصادرة من أناس يعيشون فى الظلام ، وتطول الليالى والأيام .

وفجأة يتغير المنظر ، ويتحول المشهد ؛ لأنك كنت فى جهة وتصبح فى أخرى ، وترى من الحياة نماذج جديدة غير النماذج الأولى وتصيح من أعماق نفسك ... يا لله

وتمضى بك الأيام ، لياليها وأيامها الطوال ، ويعتريك اليأس حينا من وراء الظلام ، والأمل حينا آخر فى أن يستيقظ القاسطون وقد جاوزوا المدى ...

وتطول الأيام ، وتتمنى أن تصافح وجه الحياة ..

— ٢ —

ويجتمع خلف الظلام أشباح ، تقول الشعر وتنشده وتهتف للحياة ، للأمل ، للنور ، للإنسان ، لقيم الحضارة ، لآمال السلام الاجتماعى بين النـاس .

فجأة تجىء النذر ؛ إن خصوم الحياة لم يصمدوا فى وجه القادمين والزاحفين والغاصبين لحقوق الإنسان ، وحقوق الحياة . وتتعالى النذر وتعيش البلد الحر العظيم فى أشد القلق ، وأسوأ حياة عرفها التاريخ : وتخف غلواء السادرين فى الظلام بعض الشىء ، ولكن المقابر الوحشية كانت لاتزال مملوءة بجماعات من المعذبين فى الأرض .

وهكذا كانت تمضى الحياة . .

ثم انتهت تلك الحياة الكئيبة إلى غير رجعة .

فطرة الإنسان

فطرة الإنسان دائما مضيئة كالشمس ،

بيضاء صافية كالماء .

نقية نقاء النسيم فى السحر .

لاتؤمن إلا بكل ماهو حق وعدل وخير .

لا ترى إلا كل ماهو شريف وكريم ونبيل ،

لاتستبيح العدوان أيا كان هو العدوان .

فطرة الإنسان دائما أصح منطق ، وأجل ميزان ، يفرق به بين ما هو جائز ، وماهو غير جائز ، فى السلوك والعمل والمنطق .

فلماذا إذن ترتكس فى الإنسان هذه الفطرة النقية الجليلة ؟

لماذا يصبح النور عنده ظلاما ، والحق لغوا ، والخير شرا ، والعدل جورا ؟

لماذا ينحرف الإنسان عن النهج السليم فى الحياة . .

من المنطق أن الإنسان عندما يرى فى ثوبه دنسا أن ينظفه ويطهره .

وليس من المنطق أن يعمد إلى ثوبه النظيف فيدنسه بالخبث وبالقاذورات .

لماذا ينحرف الناس عن مثل الحياة وقيمها ، وعن منهج السلوك الإنسانى الشريف النظيف .

لقد جاء الإسلام ليصحح ميزان الفطرة فى الإنسان ، وليدعوه دائما

من منطق الدين والضمير إلى سلوك كل مايتفق وفطرته ، وكل مايتلاءم والدين ، وكل مايرضى فيه الشرف والضمير .

والإنسان كثيرا ما ينحرف ، إن كرها وإن اختيارا ، خوفا أوطمعا ، ضلالا أو عن غير ضلال ، ينحرف إرضاء لرغبات النفس وشهواتها حينا ، وإرضاء للشيطان ومطالبه الملحة حينا آخر ، وإرضاء لغيره ممن بيدهم مصائر الأمور والناس حينا ثالثا .

ينحرف لسبب أولغير سبب .

ومن ثم يقبل أن يكون منفذا لإرادة جائرة .

أن يكون سوطا يلهب به غيره ظهور المساكين والمظلومين من الناس .

أن يكون أداة ينفذ به قاسط مايريد من عمل يخالف منطق الدين والإنسانية في الحياة .

ولقد رأيتهم .

رأيت هذه الأدوات المسخرة .

وقد استحالوا إلى أداة عذاب يصب على رؤوس الناس .

على رؤوس المكدودين .

على رؤوس المعذبين فى الأرض .

وقد تحجرت فى ضمائرهم كل مثل الإنسانية الشريفة .

فأصبحوا وكأنهم ليس بأناسى .

بل صخور ترمى بها أيدى الظلام والشر ، لتقع على رؤوس المشردين من الناس .

وكذلك كان .

وهكذا ـ أراد القدر .

وبهذا تسير الحياة إلى الخلف .

ويرجع الناس القهقرى

ويتجاوز المنحرفون كل مدى .

ويتنكبون كل سنن كريم .

ويصبحون وكأنهم خارجون من الغاب ، ليعيثوا فى الحياة فسادا ..

فمن من الناس يردهم ؟

ومن من أولى الفكر يصدهم ؟ .

قوم يأجوج ومأجوج .

من يقول لهم : قفوا ، فلقد انحرفتم عن سنن الحياة ؟ .. ..

يارب .. يارب الحياة والناس ..

اهدنا الصراط المستقيم

صراط الذين أنعمت عليهم

غير المغضوب عليهم

ولا الضالين

آمين . . .

عشت فى ظلال مجتمعين

حقا عشت فى ظلال مجتمعين :

المجتمع الأول عشت فيه بكل تقاليده فى أول حياتى وفى شبابى ، مجتمع أرستقراطى ، ميزان الناس فيه المال ، العائلات تقاس كرامتها بمقدار الأفدنة التى تملكها ، حتى لقد تقدم أحد القضاة ليخطب بنت ثرى يملك مئات

الأفندية ، فكان الرد بالرفض قطعا لأنه ابن فلاح، وكانت أدوات هذا المجتمع تتكون من طبقات من الأتراك والأكراد والقوللين (نسبة إلى مدينة قوله موطن محمد على وأسرته) والشوام الذين عاشوا قريباً من الاحتلال ونفوذه وكثير من المسيحيين الذين استعان بهم الاحتلال وكانوا أدواته وأياديه فى إدارة البلاد ـ وكان هذا المجتمع من عمدة القرية إلى أكبر شخص فى الدولة يكره انتشار التعليم فى مصر ويحاربه ، وكان عمدة القرية يحارب المتعلمين وبخاصة من الأزهر ، وأحياناً كثيرة يدبر المؤامرات لقتلهم ، لأنهم يقاومون استبداد العمدة المطلق ، واستغلاله للناس ، واستئثاره بكل خير فى أيديهم ، بل وبعض نسائهم الجميلات أحياناً ، ويقاومون الرشوة والفساد والفوضى التى يعيشون فى ظلالها .

وأذكر كيف حاربت عمدة قريتى سنوات طوالا ، وحاربنى هو هذه السنوات الطوال ، وأنا طالب صغير فى القسم الابتدائى فى الأزهر ، ثم فى القسم الثانوى فيه ، وكانت هـــذه الحرب تشتد حينما أكون فى القرية فى الإجازات الرسمية ، وفى يوم من الأيام أراد العمدة عمل مولد لأحد الأولياء لأن إقامته كانت سبباً من أسباب جمعه المال من الفلاحين ثم تصرفه فى هذا المال كيف يشاء ، فسعينا لمنع إقامة المولد وانتصرنا على العمدة العظيم .

والمجتمع الثانى: مجتمع الفقراء الذى عشنا فيه بعد نصف القرن العشرين ، مجتمع حطمت فيه أيدى الأغنياء . وأخذ منهم كل ما يملكون ، وصار الغنى يستجدى الناس ، وأصبح صاحب الألف فدان لا يجد قوت يومه ، وشمخ الفلاح الصغير فيه بأنفه ، وحاولت طبقات كثيرة من أصحاب النفوذ استغلال الظروف لتقوم فى هذا المجتمع على أنها وريثة الطبقة البائدة . . مجتمع التعليم فيه بالمجان ، وكل طالب من خريجى الجامعات يجد عملا فى الدولة وكل الفنيين من الشباب يعملون . وهذا المجتمع هو الذى أقامته ثورة عام ١٩٥٢ ، ولها الفضل كل الفضل فى أنها هى التى صنعته .

وقد عشت فى وسط هذا المجتمع سنوات حياتى وأنا رجل وشيخ كبير ، وصار العامل فيه قيمة كبيرة وسط هذا المجتمع الجديد .

ولو ذهبت أستقصى قيم هذين المجتمعين ومبادئهما وأفكارهما، والأصول الاقتصادية والسياسية التى قاما عليها لأخذ ذلك منى وقتا طويلا .

حقا لقد كان قيام المجتمع الجديد طفرة لم يكن أحـــد يتصورها ، ولم يكن يتصور وجودها فى مصر بهذه الصورة إلا بعد قرن من الزمان .

ولكن صنع التطور أشياء كان صنعها فى وطننا أحد المستحيلات ، وأمرا بعيد عن حدود العقل والإمكان والقدرات .

وانتصـــرنا

دخل الاحتلال الإنجليزى مصر بكراهيته للاسلام والعالم الإسلامى والفكر الإسلامى والثقافة الإسلامية ، وكان الازهر مصب كراهيته وحقده ومكره وعمله الدائب من أجل تحطيم هذه القلعة الإسلامية المنيعة التى تخرج للعالم الإسلامى أبطاله ورواده وقادة نهضته .

وماذا يصنع الاحتلال من أجل عزل الأزهر ثقافياً وفكرياً ودينياً عن المجتمع ؟

أصدر الاحتلال تعليماته السرية إلى الوزرات ـ أو على الأصح إلى المستشارين الإنجليز فيها ، وهم أصحاب النفوذ الكامل فى الإدارة المصرية وليس للوزراء بجانبهم شىء من السلطة ـ بمنع توظيف أى عالم من علماء الأزهر فى دواوين الدولة ووزاراتها على الإطلاق ولأى سبب من الأسباب

وحاجة الدولة إلى القضاء الشرعيين قابلها الاحتلال بعد تفكير عميق بإنشاء مدرسة القضاء الشرعى فى جو بعيد عن الأزهر، حتى لايحتاج إلى علمائه فى ميدان القضاء الشرعى .

وحاجة الدولة إلى مدرسى اللغة العربية ، قابلها كذلك برعاية دار العلوم والعطف عليها وإغداق المال لها ، وتوظيف خريجيها فى وزارات المعارف المصرية بمرتبات مرتفعة ، وبينما كان العالم الازهرى يأخذ مرتباً على عمله فى التدريس فى الازهر جنيها مصرياً كان خريج دار العلوم يأخذ على تدريسه فى وزارة المعارف لطلبة الإبتدائى اثنى عشر جنيها مصرياً وهذه المقابلة المادية فى المجتمع معناها العمل الدائب على تحطيم قيمة الازهر بين صفوف الناس ، هذه القيمة الكبيرة والرفيعة خلال الاجيال .

ولم يكن عالم الأزهر يجد عملا له على الإطلاق إلا فى الأعمال الأهلية فحسب ، وإلا حيث تكون الميزانية للعمل المطلوب ميزانية أهلية لاحكومية ، ولا زلت أذكر ابن عمى الشاعر الكبير نافع محمد خفاجى الذى تخرج من الأزهر قبلى بسنوات كثيرة ، وأخذ يبحث عن عمل حكومى له طيلة حياته ولو بثلاثة جنيهات ، ففشل، وظل فى فشله حتى مات . ولم يقتصر عمل الاحتلال على عزل الأزهر عن المجتمع والثقافة فى المجتمع ، وعلى إعلان حالة الحصار على علمائه ، حتى يضعف نفوذهم الروحى والدينى فى مصر - لم يقتصر على ذلك ، بل سعى حثيثا إلى تغيير مناهج الأزهر مرة بعد مرة لإدخال العلوم الحديثة فيه من حساب وهندسة وجبر وكيمياء الخ ، ولم تكن مقاومة العلماء لذلك إلا حرصا على العلوم الدينية وتفرغ طلاب الأزهر لها ، وإلا مقاومة للاحتلال ، والثقافة الغربية التى يعمل على نشرها فى البلاد ، وهذا هو سر ماعاناه الإمام محمد عبده داخل الأزهر من خصومة لأنه كان ينادى بإدخال الثقافات الحديثة فى الأزهر .

وأطلق الاحتلال لسان أعوانه لنشر الكراهية والحقد فى المجتمع على الأزهر وعلمائه ، بدعوى أنهم رجعيون ومتخلفون عن العصر ولا يصلحون للحياة ، بل أطلق الاحتلال فرقا من أعوانه لنشر النكات المنيفة على الأزهر وعلمائه وطلابه ، من مثل : « ياجاور ياجاور عمتك دابت ، من الطعمية

والقول الثابت ، الخ . ثم تعمد المندوب السامي ـ وسلطانه فى مصر آنذاك أعلى من سلطة السلطان ـ أن يدعو علماء الأزهر إلى داره للاحتفال بليلة القدر ، ثم أوعز إلى الصحفيين أن يكتبوا أن العلماء كانوا فى دار المندوب السامى وقت الصلاة ، كذباوزورا ، وذلك لحمل المجتمع المصرى المسلم على الانفضاض من حولهم ، كما تعمد الاحتلال أن ينتهز أية فرصة أو حادثة أو فلتة من أى طالب أو عالم أزهرى لنشرها وتشويهها ، لتشويه سمعة هذا المعهد العلمى الكبير ، حتى الشيخ على يوسف الأزهرى العظيم ، صاحب المؤيد ، وصاحب المواقف الكبيرة فى مقاومة الاحتلال ، اخترع له قضية ملفقة وشنع عليه بها تشنيعا كبيرا ، حتى برأه القضاء ، كل ذلك والمجتمع المصرى لايعلم شيئا عن تخطيط الاحتلال لنشر الكراهية والحقد ضـــد علماء الأزهر فى ربوعه .

ومع ذلك فحين قامت ثورة ١٩١٩ ضد الاحتلال لم تقم إلا على أكتاف الأزهر وعلمائه وطلابه ولم تخرج إلا من مآذنه ومحاريبه وأروقته .

ولم يضعف نفوذ الاحتلال فى شئون مصر الداخلية شيئا فشيئا إلا عام ١٩٢٣ حين صدر الدستور المصرى ، ثم انتهى عام ١٩٣٦ بالمعاهدة المصرية الانجليزية التى وقعها النحاس ممثلا لمصر آنذاك .

وحين ضعف هذا النفوذ كان الخلف للانجليز هم تلاميذهم فى الثقافة الغربية ، هذه الثقافة التى قال عنها كرومر عام ١٩٠٦ وقد سئل : متى يخرج جيش الاحتلال من مصر : إن بريطانيا لا تنوى الخروج من مصر إلا بعد أن يتكون جيل مثقف بالثقافة الغربية يصلح لحكم بلاده .

وحين سعينا منذ عام ١٩٣٠ ـ نحن الجيل الجديد لطلاب الأزهر ـ لكى يوظف الخريجون من الأزهر فى وزارة المعارف المصرية لتدريس اللغة العربية ـ كان يقابل سعينا بالإخفاق ، ومع أن وزارة المعارف صارت فى

يوم من الايام فى يدى محمد حسين هيكل صاحب كتاب حياة محمد ، وكان صديقا حميما للشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الازهر . إلا أن ذلك لم يؤد فى يوم من الايام إلى موافقته على توظيف أحد من خريجى كلية اللغة العربية بالازهر فى وظيفة مدرس لغة عربية فى مدارس الدولة على الإطلاق .

وحين وافقت وزارة المعارف عام ١٩٤٠ على توظيف واحد لاغير من الخريجين فى مدارسها ، كان ذلك مثار فرح شامل فى صفوفنا . وكنا يهنىء بعضنا البعض الآخر بقوله : لقد انتصرنا .

ودخل الازهر مدارس الدولة منذ ذلك التاريخ لتدريس اللغة العربية ، أما دراسة الدين فى مدارس الحكومة ، فلم يكن لها وجود منذ بدء الاحتلال الإنجليزى لمصر . . وكان جهاز التعليم الخاص بمدرسى اللغة العربية كله من أبناء دار العلوم من المدرس الابتدائى إلى رئيس تفتيش اللغة العربية ، وطبعا كان العالم الازهرى يدخل وسط هذا الجهاز غريبا غربة تامة ، حتى انتهى الامر ، بانتهاء هذا الشذوذ وتلك الغربة بعد نحو عقدين من السنين .

الازهر فى عهد الاحتلال البريطانى

الازهر مصدر الحركات الإسلامية والوطنية على طول التاريخ ، هكذا عاش الازهر حياته الالفية كما صورتها فى كتابى « الازهر فى ألف عام » .

وكذلك عاش الازهر فى قلوب المسلمين والمصريين على السواء على طول عصور التاريخ ، وكان من علمائه زعماء العالم الإسلامى ومصر على امتداد الاعوام والاحقاب .

ولا أجد مسوغا للعودة إلى تسجيل هذا التاريخ الروحى والدينى والعلمى والوطنى لعلمائه فقد سبق أن سجلته فى كتابى السالف .

ولما جاء الاحتلال الانجليزى وجيوشه وخبراؤه إلى مصر، ومن ورائهم المبشرون والمدارس التبشيرية والعلمانية الانجليزية والفرنسية والالمانية والإيطالية والبلجيكية والهولندية والامريكية وغيرها . كانت الصليبية إذ ذاك تسود كل أعمال الاحتلال وتصرفاته الظاهرة والخفية .

ففرض الانجليز حصارا على الازهر وعلمائه، منعوا أن يوظف أحد من علماء الازهر فى أية وزارة من الوزارات ، أما وظائف الازهر فكانت أوقاف الازهر التى يتولاها شيخ الازهر هى مورد المرتبات التى تصرف لعلمائه ، ووظائف الإمامة كانت مرتباتها تصرف من أوقاف أهلية غير حكومية .

ثم رأى الانجليز إنشاء مدرسة القضاء الشرعى ليستغنوا عن العلماء الازهريين فى وظائف القضاء الشرعى .

وشجعوا مدرسة دار العلوم لتصبح هى المدرسة الوحيدة التى تغذى وزارة المعارف بمدرسى اللغة العربية .

وعاونوا طبقة من العلماء صارت تناوىء بضرورة فتح الازهر عينه على أضواء الثقافة الغربية المعاصرة ، من بين متطرف ومعتدل فى هذا المجال .

وكان الفضل الاكبر فى إفساح مجال العمل الحكومى أمام الازهريين راجعا إلى مصطفى النحاس ووزارته التى ألفت عام ١٩٤٢ ، وهو الذى سوى بين علماء الازهر وخريجى الجامعات المصرية فى المرتبات عام ١٩٤٤ .

ماذا كان قصد الانجليز وتلاميذهم وأنصارهم من ذلك ؟

إنها أثر الفكرة الصليبية التى كانت تعمل للحرب الخفية الموجهة ضد الإسلام والفكرة الدينية أولا وقبل كل شىء ، وكان كرومر ينادى بأن الانجليز لن يخرجوا من مصر حتى توجد طبقة مثقفة بثقافة الغرب تستطيع

أن تتسلم مسئوليات الحكم الوطنى فى بلادها ؛ وهذه الطبقة طبعا كان الهم الاكبر لتخريجها من مدارس التبشير بين الاوربيين .

وكان صنائع الانجليز فى مصر وما زال أنصار الثقافة الغربية فى مصر يحاربون الثقافة الازهرية حربا شعواء ويصفونها بالتعصب !!

لماذا ؟ لان ثقافة الازهر هى ثقافة الإسلام الذى يحاربونه . ولان رجال الازهر ضد الماسونية والصهيونية والعلمانية والإلحادية والمادية ، وهم يريدون لهذه الافكار أن تذيع فى المجتمع المصرى لتقضى على تماسك صفوفه ، وعلى وحدة هدفه ، وعلى مناعته ضد الغزو الاستعمارى الثقافى والفكرى والتبشيرى .

وهذا ما حدث

وما كان . . .

أنا الغريب

غريب حقا

غريب فى مجتمعى ، وبين الناس

غربة الفكر

غربة الخلق

غربة النفس

غربة الحياة

فالناس يصطلحون على أفكار خاصة ، وعلى اصطناع أخلاق معينة . وأنا من بينهم غريب فكراً وخلقا ، غريب النفس ، غريب الحياة .

يصطلح الناس من حولى على أن يسلكوا لمآربهم ومطامحهم وآمالهم وأمنياتهم كل سبيل ، وكل وسيلة .. وأنا من بينهم أقف على ماعودت عليه نفسى خلقا وعملا وفكرا وسلوكا .

والناس يذلون نفوسهم أمام مآربهم ومطامحهم ، وقد عودت نفسى أن أعزها وأن أرتفع بها ، مهما كلفنى ذلك من متاعب وآلام ومحن وأرزاء ، ولذلك أعيش بينهم فى غربة شديدة . . نفسى هى الغريبة بينهم .

وحياتهم أنماط متعددة ، لكل ظرف نمط ، ولكل حال مقام ، ولكن حياتى نمط واحد لا اختلاف فيه ؛ على السراء والضراء ، على القرب والبعد ، على الخير والشر . على النعمة والمحنة .

والناس فرحون بما لديهم .

ولكنى أنا ـ ويا للحظ ويا لسوء الحظ ـ الغريب بينهم ، المنفرد فيهم ،

أقف ويسيرون ، أجلس وينهضون ، فقير وهم موسرون ، مريض وهم أصحاء ، مرزأ وهم مرفهون .

لماذا لأنى أنا الغريب وحدى .

أنا الشقى وحدى .

أنا الفقير وحدى .

غربة قاتلة ، لايسعفنى فيها شيء أو جاه .

لا يساعدنى سوى ربى العظيم القدير .. ولو كنت لست بالغريب إذن لما كنت على ما كنت عليه من وحدة وانفراد وشقاء .

الرقم ١٣

سبحان الله .

لم أكن أومن بشيء من التفاؤل أو التشاؤم مهما كان ..

إنه القدر العظيم وحده يا عزيزى ، هو الذى يسعدنا أو يشقينا .

الله . القدر . السماء .

مصدر الخير ، ومرجع الأمر ، لله وحده . فله وحـــده كل أمر جل أوهام .

ولكن كم كنت أسمع شؤم رقم ١٣ ونحسه ، فأقول لنفسى ضاحكا : إنها أسطورة من الأساطير ، أو خرافة من الخرافات ، هكذا كان .

وحدث لى بعد ذلك مالم يكن فى الحسبان ، ومالا يتصوره إنسان ، وإن كنت مع ذلك لا أومن أن لرقم ١٣ دخلا فى شيء من هذه الأحداث .

أردت طبع تفسيرى ، فطبعت منه ثلاثة عشر جزءا ثم وقفت ، ولو خيرت لكنت قد طبعته كله كاملا بأجزائه الثلاثين .

— قدر لى أن أعيش فى الظلام حينا من الزمان فكان ذلك فى اليوم الثالث عشر من الشهر العربى .

— وأقمت هناك فكانت إقامتى ثلاثة عشر شهرا .

— وتوفى أبى فى الثالث عشر من الشهر العربى .

— وكذلك توفيت أمى فى الثالث عشر من الشهر .

— وتوفيت بنتى فى الثالث عشر من الشهر أيضا ولله فى صنعه تدبير وحكمة .

من أنا ؟

— ١ —

سؤال طالما سألته لنفسى

طالما قلت لها : من أنا

وكنت أجهل نفسى جهلا تاما

ولم ألبث أن أضنيت نفسى بالبحث لأظفر بجواب عن هذا السؤال الغريب .

وعادت إلى نفسى تقول لى : أنت من الخفاجيين العقيليين العامريين القيسيين ، وكان ذلك محور كتابى «بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى» .

ولكن هذا الجواب لم يشف ظمأ نفسى إلى المعرفة .

وعدت أسألها : من أنا ؟

وأضنيت نفسى بالبحث لأظفر بجواب .

وعادت إلى تقول لى : أنت ابن الأزهر العظيم صاحب الألف عام وهى تاريخه الطويل الحافل بجلائل الأعمال ، وذلك كان محوراً لكتابى .. « الأزهر فى ألف عام » .

ولم يكن هذا الجواب شافيا لنفس ظمأى إلى المعرفة .

وعدت أسألها فى لهفة : من أنا ؟ .

وأضنيت نفسى بالبحث ، كما ورد فى القصص والأساطير العربية القديمة ، التى تقول إن إنسانا أحب فتاة ، فاشترطت عليه أن يكون مهرها شيئا غريبا لا يوجد إلا فى آخر العالم ، ومن ثم سافر يطلب المهر فى هذا المكان البعيد ويتجشم من أجل طلبه أهوال السفر والرحلة والانتقال .

وعدت إلى نفسى بالجواب : أنت ابن مصر العريقة التليدة ، وكان ذلك محورا لكتب عدة لى :

- التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر .
- مواكب الحرية فى مصر الإسلامية .
- قصة الأدب فى مصر بأجزائه الخمسة .
- قصة الأدب المعاصر بأجزائه الأربعة .

ولم يشف ذلك الجواب ظمأ روحى المتعطشة إلى المعرفة ، فعدت أسائلها : من أنا ،

وكلفتنى البحث والتعب ، وبعد أن أضنانى البحث عن الحقيقة ، عادت إلى نفسى تقول لى : أنت ابن العرب والعروبة ، وكان ذلك محورا لكتب كثيرة ألفتها :

- قصة الأدب فى ليبيا العربية .
- قصة الادب فى الحجاز .
- قصة الادب فى الاندلس .

وغيرها من الكتب التى كنت أحاول أن أكشف بها جانبا من جوانب حضارة العرب ومجدهم وتاريخهم وحياتهم وفكرهم وثقافاتهم وأدبهم .

ولم أظفر بما يطفىء ظمأ قلبى إلى نبع الحقيقة ، وعدت أسائل نفسى : من أنا ؟

وعاد إلى الصدى بالجواب : أنت ابن الإسلام العظيم ، ابن القرآن الحكيم ، ابن هذا الدين المحمدى الجليل ، وكان ذلك محورا لكتب عديدة ألفتها عن الإسلام وثقافاته ، ويمكن الرجوع إليها فى كتاب مثل كتاب « فصول من الفكر المعاصر » .

أوكتاب صور من الفكر المعاصر .

أوكتاب من كفاحنا الفكرى .

أو كتاب « من رواد الادب المعاصر » .

— ٢ —

وظفرت بما أثلج صدرى ، وبما جدد شوقى إلى السير فى الطريق .. طريق البحث عن الحقيقة ..

وأخذ السؤال القديم يتجدد : من أنا ؟ ، وأخذ الباحثون عن الحقيقة يصيحون : من أنت :

وعدت لأدور فى الارض .

باحثا عن صورة الحقيقة التى أنشدها .

متطلعا إلى النور الذى يضىء لى الطريق .

مترقبا للأمل الذى يحدد مسعاى .

منتظرا أن تشرق لى السماء بنورها لتهدينى إلى الطريق .

وعدت لأقنع عقلى بمنطق جديد ..

— أنت ابن الإسلام ، وابن السماء حقا .

— ابن النور والضياء والمعرفة والثقافة .

— ابن الامل المتجدد .

— ابن الحقيقة المجهولة التى تهتدى إليها .

— ابن القرآن الكريم ، والعربية الصافية ، والفكر المتوثب وقلت: ما أسعدنى بهذا الجواب حقا .

— ٣ —

ولكن لن يغنيني انتسابي إلى هذه العظمة النادرة شيئا ، إذا لم أكن أهلا لان أضيف إليها إضافات أخرى ، ولان أعمل من أجل الاحتفاظ بأصولها كاملة مهما كان فى العمل من مشقات .

وأخذت أبحث عن الحقيقة أعواما طوالا .

— فى عام ١٩٤٩ كتبت كتابى الإسلام وحقوق الإنسان بعد أن كشفت عظمة الإسلام فى تقريره لحقوق الإنسان كاملة قبل أن يعرفها الإنسان ، وقبل أن تعرفها أوربا .

— وفى عام ١٩٥٤ كتبت كتابى « الإسلام دين الإنسانية الخالد فى أكثر من ثلاثمائة صفحة بعد أن كشفت أنه ليس دين العرب ولا المسلمين وحدهم بل هو دين الحياة كلها ، ودين البشرية قاطبة .

— وفى عام ١٩٥٥ كتبت كتابى بين الشيوعية والإسلام لأقرر فيه عظمة الإسلام حيال مبدأ جديد يريد أن يغزو بلاد المسلمين باسم العطف على الفقراء والكادحين .

— ثم كتبت فى أعوام متعددة كتبى : الإسلام رسالة الإصلاح والحرية - الإسلام ومبادئه الخالدة - الإسلام دين الإنسانية - فى ظلال الإسلام - من ماضى الإسلام وحاضره - الإسلام فى قيادة المجتمع العربى - الثقافة الإسلامية - صور من الفكر العربى وتاريخ الإسلام - مأثورات نبوية - تفسير القرآن الحكيم - الذكر الحكيم - الرد على المشركين - الرد على الماديين - الرد على الملحدين - الرد على أعداء الإسلام . . لأثبت فيها جميعا أننا لابد أن نسير فى ظلال الإسلام ، لنفيء إلى ظله الظليل ، ولنحيا فى إشراقته الجميلة الجليلة .

— وفى عام ١٩٦٣ ألقيت فى ليبيا محاضرة بعنوان الإسلام فى قيادة

الإنسانية ، أدعو فيها إلى رفض وصاية الغرب الفكرية والحضارية علينا ، وأنادى فيها بالعودة إلى حضارة الإسلام وقيمه ومثله .

— وفى عام ١٩٦٩ ألقيت محاضرة فى الرياض بعنوان « خلود الإسلام» أبين فيها عناصر الخلود فيه .

— وفى عام ١٩٧٠ ألقيت محاضرة فى الرياض أيضا بعنوان «غد الإسلام» أنادى فيها بفلسفة إنسان مسلم يقول الحقيقة كاملة غير منقوصة .

وكل ذلك تعبير مباشر عن حقيقة خالدة ، هى صدى جواب للسؤال الحائر : من أنا .

— ٤ —

ومن أنا ؟ .

— أقول إننى إنسان مسلم أولا وعربى ثانيا .

— إنسان يرى الغرب قد سرق حضارة الإسلام وثرواته وكنوزه وتراثه وثقافاته وأدبه ومبادئه وعاش بها ، وبنى حضارته عليها ، فحضارة الاسلام هى أصل حضارة الغرب التى نراها بأعيننا اليوم .

— إنسان يرى رفض وصاية الغرب الحضارية والثقافية والفكرية والاجتماعية علينا .

— إنسان يرى التحدى الكبير الذى يواجه به الغرب كله الإسلام والمسلمين والعرب ليحولهم إلى حيث يريد أن يحولهم إليه من مبادئه وحياته وسلوكه .

— إنسان يرى الغرب يتمسك بدينــــه ولا يرى للمسلمين إلا أن يرفضوا دينهم .

ـ إنسان يرى العقبات التي يضعها الأوربيون في طريق الاسلام وأبنائه .

ـ إنسان يرى أن الاسلام يواجه غزوا بربريا صليبيا وصهيونيا وشيوعيا ، وأن أهله لايفهمون حقائق هذا الصراع والغزو ، ولايعملون للقضاء على هذا الغزو ولا للتخطيط للغد الذي يمكنهم فيه القضاء عليه ، بينما يعمل أعداء الاسلام مخططين للقضاء عليه وللتضليل بأهله .

ـ إنسان يرى ضرورة قيام بعث إسلامي جديد يستطيع العرب والمسلمون في ظله أن ينهضوا ويكافحوا من أجل توعية الرأي الاسلامي وتوجيهه وجهة جديدة .

إنسان ينادي بأن الاسلام سوف يكون غدا القوة العالمية الوحيدة في العالم ، وسينتصر حتما في معارك النضال .

إنسان يريد للمسلمون أن يقابلوا تحديات الصليبية والصهيونية والشيوعية والاستعمار بعزم قوي وصلابة تامة ورجوع كامل إلى الاسلام العظيم .

لكي ننتصر في الحياة . .

ـ لطفى ، صبرا ، إن حياتنا فى المدرسة مؤقتة ، لا تحزن ، غدا يتسع الأمر ، وتحلو الحياة .

ـ لى اليوم ، وغد فى ضمير الغيب ، لقد ضقت ذرعا بالحياة ، ضقت بحظى فيها . وماذا تجدى التسعة جنيهات الملعونة مرتبى الشهرى من الخواجة بيير .

ـ بيير بالذى ، ياله من مدير قوى المراس ، أنت يعطيك تسعة جنيهات ، وأنا يعطينى عشرة بفارق بسيط ، ومع ذلك فإنى لا أريد لنفسى أن أضايقها بالألم والشكوى يالطفى .

مدرس الانجليزى لا يأخذ مثل هذا المرتب فى أية مدرسة ياعزيزى .

ـ ومدرس العربى ، وهو أنا ، أو جنابى المحترم ، أليس كذلك أيضا يالطفى .

تعسا لحالتنا معا . . ويأخذ لطفى فى الانقباض ، وفى فسحة الظهر يقضيها فى حجرة فى الدور الثانى وحيدا كئيبا ، وقلت فى نفسى إنه يعيش فى الحرمان ، ويحب العزلة والوحدة فلأدعه فى وحدته .

ولم ألبث غير قليل أن أدركت أنه يجرب فن الحب . فى وحدته ، مع بعض تلميذاته الصغيرات ، وانطويت على نفسى ، وانقبضت منه .

وتركنا لطفى واختفى ، ثم عاد بعد عام ليزورنا فى الليسيه ضابطا برتبة كبيرة فى الجيش السورى ويركب سيارة فارهة ، وسلم علينا فى المدرسة « الليسيه فرانسيه ، فرع شبرا ، ثم انصرف .

ومرت الأيام .

وإذا مجلة الرسالة الجديدة فى يدى .

أقرأ فيها ذكريات رائعة عن هاواى بقلم لطفى ؛ وفى هذه الذكريات يقص علينا لطفى كيف ذهب إليها ، وتزوج منها ، وعاش فترة .

وصمت .

وقلت : حسنا ، هذا حظه ، لاشك أننا لو تقابلنا ، فسيأخذنى معه إلى إلى هاواى ، أو على الأقل ، سيغدق على من هدايا هاواى .

وتمر الأيام .

وإذا أنا فى مكتب صديقى وديع فلسطين فى جريدة الاهرام . .

ودخل شاب أسمر نحيف .

وجلس أمامى يشرب القهوة .

ويطلب من صديقى وديع نشر مقالة له عن المكتب العربى فى بيونس آيرس عاصمة الأرجنتين ، وحاجته إلى المعونة ـ ، ويخبره أنه سكرتيره ونظرنا إليه وصحنا يا الله ، لطفى ، لطفى نفسه ، هو عينه .

وقلت : مرحبا بصديقى لطفى .

ولم يرد .

وعدت : يالى من إنسان محظوظ .

عينى ترى .

وأذنى تسمع .

ياالحظى .

وصديقى لطفى .

ـ ولم يرد ، إنه كان قد غير اسمه ، فلم يعد اسمه لطفى .

ـ وسكت لحظة ، ثم قلت : هل نسيت أيامنا الجميلة فى الليسيه .

ـ وعاد يقول :

لا ، لا أعرف الليسيه .

فقلت له : الحمد لله ، لتكن ما تكون ، لطفى أو غيره فالأمر لك .

ولكن مما يسرنى أنى بدأت أترك التفكير فى مصير لطفى ، رحمه الله ، حيا .

وتركت مكانى لأخرج حيث كانت تريد لى قدماى ..

حظى معى فى كل مكان

ولماذا لا يسير حظى معى

حيث كنت فى القاهرة كنت أقول إننى لا أتوسل بمحسوبية ولا بصلات شخصية إلى أحد ، وليكن ما يكون .

وسافرت إلى ليبيا

وتصورت عند ما أخذت السيارة من القاهرة لتوصلنى إلى ليبيا أننى صرت من الأغنياء المرموقين .

ولماذا ؟

هذه طريق الثراء التى يسلكها غيرى ،

— ولكن المائة جنيه المقررة لنا كيف توصلنى إلى الثراء ؟

— هذه هى التى توصل غيرى ، فلأكن مثلهم ..

— وهناك فى البيضاء كنت أعيش وكأنى لا أريد أن أحرم نفسى من شىء ، وكان غيرى يرى أن مهمته هى أن يجمع المال .. ونجحوا وفشلت .

وعدت بخفى حنين

دارت الايام ، وسافرت إلى السعودية

وقلت لنفسي : خير ، لابد إذا من أن يصبح لى رصيد كبير بعد عام كامل أقيمه فى الرياض .

ومر العام وفى نهايته جئت لاسافر فاستدنت من صاحب البيت ثلاثين جنيها لاكمل بها مصاريف السفر .

يالله .. الحظ هو الحظ

لا فائدة

لقد أراد لى حظى الحرمان ، فكان ما كان .

وفى البيضاء كنت أدرس اثنتى عشرة مادة فى سنة واحدة : الأدب والنصوص والنقد والأدب المقارن والبلاغة والبلاغة الحديثة والأدب المهجرى والأدب الليبى ، والحديث والتفسير ؛ وبعض هذه المواد أدرسه لفرقة ولأكثر من فرقة ، وكنت أسهر حول الكتب أقرأ وأكتب ولم أسترح ساعة واحدة طول إقامتى فى البيضاء . وكذلك كنت فى الرياض لا أستريح ولا أريح ؛ بينما يدرس زملائى مادة أو مادتين فى السنة .

ولكن حظى غير حظهم ، ولى من حظى التعب والشقاء والحمد لله ..

ولو أنى سافرت إلى اليابان أو إلى الولايات المتحدة مثلا ، لما تغير حظى على ما أعتقد .

لن أعود بغير خفى حنين

ولعن الله حنينا وخفه المشئوم

ولعن حرفة الأدب التى أصابتنى بنحس طويل فى حياتى .

حتى لقد كتبت عن ابن المعتز الذى قيل فيه : « ولكن أدركته حرفة الأدب .. »

وليتنى لم أكتب عنه

ولكن لماذا لا أكتب عنه ، ليقودنى حظه إلى ما قادنى إليه من شقاء طويل ..

وليت الأمر كان لى

إذن لطردت عن نفسى النحس والشقاء منذ زمان طويل .

كان السيد محمد الغنيمى التفتازانى رحمه الله صديقا حميما لوالدى ، وكانت منزلته الكبيرة فى الادب والصحافة وفى المجتمع المصرى تجل عن الوصف ؛ وحينما قاربت أن أنتهى من دراستى الثانوية كنت أمنى نفسى بأنى سوف أكون فى القاهرة قريبا منه ، وأنه سوف يذلل لى عقبات الحياة التى تعترض طريقى ، ولو عن طريق إيجاد عمل لى فى الصحافة .

وفى العام الذى كنت سوف أسافر فيه إلى القاهرة للتعليم العالى توفى السيد التفتازانى .

ولكن لماذا توفى فى هذا العام نفسه ؟

إنه مثل من الأمثلة على حظى ، وكفى

لماذا أعيش ؟

أعيش لمثلى التى لا أحيد عنها ..

للشرف

للخير

للإنسانية

للقيم العالية

للإيمان المطلق

للسمو الإنسانى الذى لاحد له

للطموح والعمل ، وللجد الذى لا مثيل له

أعيش أومن بالفضائل وبالآداب وبالمثل

أومن بالدين وإنسانيته

أومن بالتراث وأهميته

أومن بالماضى والحاضر طريقا إلى المستقبل ، ونهجا يوصل إلى الغد ، والغد عندى أفضل من الحاضر والماضى معا

لم أنحرف فى يوم من الايام

لم أحد قيد شعرة عن إيمانى بنفسى وبطهارتها وبأنه يجب على ألا أدنسها بعيب أو بقذى يشوهها ، فى يوم من الايام .

لم أجمع فى يوم من الايام مالا

وكل ما يجىء فى يدى لا يبقى منه شىء ، وأنا كما يقول الشاعر القديم :

لا يألف الدرهم المضروب صرتنا ... لكن يمر عليها وهو منطلق

قد أعيش مهموما لانى لا أجد معى لنفسى ولا لبيتى بعدى شيئا من مال أعتمد أو يعتمدون عليه فى يوم من الايام ..

وكانت أمى كثيرا ما تقول لى وهى توصينى ببعض من الحرص :

يا ابنى قرشك الابيض ينفعك فى اليوم الاسود .. وصدقت أمى ، لان ما قالته لى ، وما كررته على مسامعى ، هو من تجارب الحياة وحكمها الجليلة .

ولـكنى فطرت هكذا ، وخلقت على ما أنا عليه غير مخير فى شىء ، ولو خيرت لـكنت أختار .. ولـكنى هكذا .

إنسان يلتى بأموره كلها لله

يحب أن يؤدى الواجب للناس وإن آده ذلك كثيرا لا يبخل بشىء مما فى يده على أحد .

يحمل أعباء الناس وهمومهم وآلامهم على كاهله لايرى أن يعيش لنفسه

إنسان يوزع موارده بين نفسه والناس والمطابع ويعيش على الفقر والحرمان

وقد يجىء يوم عليه يطلب الدرهم فلا يجده

يريد الهواء فلا يستطيع

يحب شيئا فلا يجد القدرة عليه

وتعسا للحياة

وشقاء لـكل محب لمثل الحياة ..

تجاربي في الشعر

في الشعر تأثرت أول ماتأثرت بابن خالي الشاعر الكبير نافع محمد نافع الخفاجي ، وهو شاعر ضاع ديوانه في يد صديق له أخذه ليطبعه وأخفاه ، وحاولت أن أسجل نماذج منه في كتابي بنو خفاجة ، ولو كان ديوانه في يدي اليوم ونشرته لرأى الناس فيه شاعراً من فحول شعراء العربية المعاصرين .

كما تأثرت بمدارس العذريين والعباسيين والمحدثين والمعاصرين وبمختلف قراءاتي الشعرية ، بما كان ينشر في المجلات الأدبية . ومن بينها مجلة الرسالة .

وتجاربي الأولى في الشعر كانت عام ١٩٣٥ وقد سجلتها في ديواني وحي العاطفة الذي طبعته عام ١٩٣٦

ثم واليت هذه التجارب ، بما سجلته في ديواني أحلام الشباب الذي نشرته عام ١٩٤٨

ولا يزال ديواني الجديد مخطوطاً لم يطبع بعد ، وعنوانه . . أحلام السراب . .

لعل من شعرائي المفضلين النابغة وجرير وابن أبي ربيعة والبحتري وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي وشوقي وحافظ والأسمر وأبو شادي وناجي والشابي وعلي محمود طه وأحمد محرم ومحمود غنيم ومحمد عبد الغني حسن وإبراهيم ناجي وأبو شادي .

وإن كنت قرأت كل دواوين الشعر القديم والحديث وكل مجموعات الشعر المؤلفة في مختلف العصور .

الشعر الكلاسيكي المجدد والشعر الرومانسي الأصيل هما اللذان أقرؤهما وأستجيدهما .

المذاهب الشعرية المتطرفة فى التجديد والبعيدة عن روح العربية وجمالها وموهبتها وعذوبتها لا أقرؤها ولا أميل إليها .

أحب الشعر الذى تتجمع فيه عناصر ثلاثة :

١ — الموسيقى الداخلية الثائرة ، كشعر الشابى ، ومن قبل شعر الشريف الرضى ومهيار ، ومن قبلهما شعر البحترى وعمر بن أبى ربيعة والنابغة الذبيانى .

٢ — شعر التجارب الشعرية العميقة الاصيلة ، والصور التى تحكى الحدث الفكرى الحزين أو الثائر ، كشعر ابن المعتز وابن الرومى وإبراهيم ناجى ، وشعر الصيرفى وكامل أمين .

٣ — الشعر الدرامى الحركى ، الذى يتابع تسجيل التجربة ، لحظة بعد لحظة ، ووقتا بعد وقت ، ومن أمثلته شعر المتنبى وابن الفارض ، وشعر كيلانى سند من المعاصرين .

ومن الشعر الكلاسيكى الأصيل ، أقرأ نماذجه الرائعة لشوقى وحافظ والأسمر وعزيز أباظة وأحمد محرم ومحمود غنيم ، ومحمود أبو الوفا ، ومحمد بدر الدين ، ومحمد شمس الدين ، وغيرهم ... وأفضل منه الشعر التأملى ، والوجدانى .

أطرح الشعر الحر والمنطلق والمرسل وغير ذلك من كل ألوان الخروج عن الشعر العمودى .

شعرى أميل فيه إلى بساطة التعبير وغنائيته وأن يكون صادراً عن تجربة شعرية عميقة ، وعليه مسحة من العاطفة الصادقة الحزينة ، وأن يمثل أصداء صور حركية درامية تتابع تسجيل أحداث التجربة ووقع خطاها فى أعماق النفس لحظة بعد لحظة .

مذهب أدبي جديد

— ١ —

ويمثل نثرى مذهبا أدبيا جديدا ، تختلط فيه الصورة بالموسيقى ،واللفظة بالنغم ، والعاطفة بالعقل ، والخيال بالفكر ، ويسير أشواطا بعيدة فى سبيل عرض شريط متحرك للفكرة أو التجربة أو الحدث .

لا أحب فيه التأنق الشديد ، ولا الجزالة الكلاسيكية ، وقد يجوز لى أن أصفه بأنه أسلوب رومانسى ، للعاطفة وللطبيعة وللتجربة ، ولدرامية الحركة ، الجانب الأكبر من العناية والإيثار .

لقد قرأت ابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع والتوحيدى وابن الأثير ، ومحمد عبده والمنفلوطى وطه حسين والعقاد والزيات وزكى مبارك وأحمد أمين وهيكل والمازنى وغيرهم من كتاب العربية وأدبائها الملهمين .

وتذوقت بلاغة القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، ونماذج الإمام على الرفيعة .

وقرأت أكثر نصوص الأدب العربى القديم ، والكثير من نصوص أدبنا الحديث ، والعديد من النصوص الغربية المترجمة .

وليس هناك آثر عندى من مذاهب الجاحظ والبديع والمنفلوطى وطه حسين فى النثر الأدبى .

ويمثل نثرى كتاباتى فى كتبى الإسلامية وكثير من كتبى الأدبية ، الإسلام دين الإنسانية الخالد ، نداء الحياة ، الجاحظ ، رائد الشعر الحديث ، من بين كتبى على الخصوص .

— ٢ —

ولطالما سئلت : ما أفضل كتبك لديك ؟

هل أفضل : تفسير القرآن الحكيم ، أو الأزهر فى ألف عام ، أو مواكب الحرية فى مصر الإسلامية ، باعتبار أن كلا منها يمثل منهجا مستقلا .

أو أفضل : ابن المعتز ، أو رائد الشعر الحديث ، أو الجاحظ ، باعتبار أن لكل منها اتجاها خاصا .

أو أفضل : قصة الأدب فى ليبيا العربية ، أو كتابى الآداب العربية فى العصر العباسى الأول ، لأن لكل منها مذهبه المتميز .

أو أفضل تحقيق على كتاب البديع لابن المعتز أو إعجاز القرآن للباقلانى ، أو الإيضاح للقزوينى ، أو على قواعد الشعر لثعلب ، أو على فحولة الشعر للأصمعى ، أو على دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى ، أو كتابى « رسائل ابن المعتز » التى جمعتها لأول مرة من مختلف المصادر :

ماذا أفضل : هل أفضل كتابا من ثلاثمائة كتاب أخرجتها ...

قد يكون ذلك من الصعب أو فى حكم المستحيل على المؤلف الذى يعد مؤلفاته قطعة من فكره وقلبه .

— ٣ —

ولقد احتذى تأليفى الكثيرون من أساتذة الأدب ، وأخذوا منها ، واستمدوا من مناهجها ومصادرها ، بل ونقلوا عنها الكثير .

واحتذاها كذلك كثيرون من أدبائنا وكتابنا ومؤلفينا .

وقد قامت معركة نقدية بينى وبين الأستاذ سيد عبد العزيز الاهل الذى كتب بعدى عن ابن المعتز فكان صدى كاملا لما كتبت ، وقامت كذلك

معركة بيني وبين أحمد كمال زكي الذي كتب عن الجاحظ ، فشوه الجاحظ ، وكتب بعدى عن ابن المعتز ، فشوه ابن المعتز تشويها كثيرا .

وهناك كتاب يدرس وهو الأدب العربي وتاريخه في عصر صدر الإسلام وبني أمية ، وهو نقل حرفي من كتابي « الحياة الأدبية بعد ظهور الإسلام » .

وقرأت مقدمة كتبها محقق في دمشق لكتاب البخلاء للجاحظ، وكانت هذه المقدمة عن الحياة الأدبية في عصر الجاحظ ، وكانت نقلا حرفيا من كتابي : الحياة الأدبية في العصر العباسي :

وقد طبع أصدقاء لي كتبا اشتركوا معي في تأليفها اشتراكا محدودا ، بأسمائهم وحدهم ، وهم كثيرون ، ولاداعي لذكر الأسماء حتى لايظن أن ذلك مقصود به الإساءة .

وهناك كتب ألفتها لأدباء كثيرين ، ورسائل اشتركت مع أصحابها في كتابة الكثير من فصولها ، ومن بينها رسالة عن الزمخشري ، وأخرى عن التيار الفارسي في أدب ابن المقفع .

وبعد .. فذلك كله صورة لنثرى الأدبي والعلمي .. والإسلامي ..

— ٤ —

وقد يسأل سائل : ماهو الكتاب الذائع لك ؟ والذائع معناه في عرف الناس أنه طبع طبعات كثيرة ، وأن كل طبعة احتوت على عشرات الآلاف من النسخ ..

وأقول إن ذيوع الكتاب المعاصر وراءه أيد سياسية أو اجتماعية أو عقائدية ، أو استغلال مادى .

وأنا إلى اليوم أطبع كتبي من جيبي ، وأنفق عليها من مالي ، وقدرتي محدودة على طبع كتبي طباعة ضخمة العدد .

ومع ذلك فقد طبع كتابي ابن المعتز طبعتين ، وكتابي رائد الشعر طبعتين ، وكتابي مأثورات نبوية طبعتين . وطبعت كتبي المقررة في الازهر وفي كلية اللغة العربية طبعات كثيرة .

وطبع كتابي قصة الأدب في الأندلس طبعتين ، الطبعة الثانية منهما خرجت من بيروت .

طبع شرحي على الإيضاح في البلاغة ، وشرحي على ابن عقيل ، وشرحي على مقامات الحريري ، وشرحي على كتاب البديع لا بن المعتز ، وغير ذلك طبعات كثيرة .

ومع ذلك فلا يزال هناك متسع ليوجه لي بعد فترة مثل هذا السؤال ...

كتاب تأثرت به

حضارة العرب لمحمد كرد علي .

كتاب أفدت منه وتعلمت عنه الكثير .

أخذت منه الكثير من المعلومات عن الإسلام وحضارة المسلمين .

وأخذت منه تعود المنهج العلمي في الكتابة والاعتماد على النصوص وترتيب الأفكار ومنطقية البحث والحرص على الأسانيد .

كنت أقرؤه عام ١٩٣١ واندمجت فيه بكل روحي وفكري معا .

فقد رأيت فيه طريقة البحث وكيفية الاقتباس من الأفكار ونقل النصوص والإشارة إلى مصادرها في هوامش الكتاب ، وذكر المراجع في آخره . . مما أحدث أثره العميق في نفسي وعقلي .

وصار هـــذا المنهج هو أسلوبي في التفكير والحياة ، وفي البحث والتجربة ، وفي الدراسة والكتابة .

كنت لا أعرف شيئا عن محمد كرد على .

فعرفته من هذا الكتاب عالما ضليعا ، ومفكرا جليلا ، وكاتبا دقيقا، ومطلعا غزير المادة .

وكذلك صرت أشق طريقى العلمى فى الحياة .

وكذلك صرت أحب طريقة البحث والتفكير .

التيار الفكرى الذى أمثله

— ١ —

وفى كتاباتى يظهر التيار الفكرى الإسلامى قويا واضحا .

التيار الإسلامى الذى عشت فيه فى الأزهر ، وتثقفت به على أيدى شيوخه وفى كتبه ، وقرأت عنه لأعلام الفكر الإسلامى القديم والحديث، وكان من أجل ما قرأت عنه فى الحديث كتاب « . التجديد فى الإسلام لمستشرق أمريكى وهو ترجمة عباس محمود ... وكان يمثله فى رأينا الإمام محمد عبده ثم الشيخ محمد مصطفى المراغى خير تمثيل .

هذا التيار عشت فيه بمطالعاتى وبكتاباتى فى كتبى الإسلامية العديدة ، ومن بينها :

- الإسلام وحقوق الإنسان .
- الإسلام ومبادئه الخالدة .
- الإسلام دين الإنسانية الخالد .
- « « «
- « رسالة الإصلاح والحرية .
- فى ظلال الإسلام .

— مأثورات نبوية .

— تفسير القرآن الحكيم .

— الذكر الحكيم .

وغيرها :

ويظهر هذا التيار فى الكثير من كتاباتى فى كتبى العامة ذات الطابع الادبى ، ومن بينها :

— قصص من التاريخ .

— فصول من الثقافة المعاصرة .

— نداء الحياة .

— من تاريخنا المعاصر

كما يظهر فى كتبى الأدبية ذات الموضوعات المتعددة ، من مثل :

— مع الشعراء المعاصرين .

— دراسات فى الأدب والنقد .

— صور من الادب الحديث .

وهذا التيار يتضح أكثر عندما تظهر جميع كتبى المخطوطة وفيها الوان عدة من الدراسات الإسلامية الخصبة الرفيعة .

وإن كان هذا التيار لا يظهر بوضوح فى كتبى الأدبية الخاصة من مثل دراساتى عن العصور الادبية ، ومن مثل دراساتى عن أعلام الادباء القدماء والمحدثين والمعاصرين ، ومن مثل دراساتى العلمية المطبوعة .

ولكنه أكثر وضوحا فى كتبى التاريخية والصوفية مثلا ، ومن بينها :

- مراكب الحرية فى مصر الإسلامية .
- الأزهر فى ألف عام
- التصوف الإسلامى
- التراث الروحى للتصوف الإسلامى فى مصر
- الأزهر فى ألف عام

— ٢ —

ومن هذا التيار يتضح الجانب الفكرى الإسلامى فى حياتى ، الفكر :

— الذى يؤمن بالإسلام وتراثه وماضيه وحاضره ومستقبله ، وبضرورة الالتقاء الفكرى بين شعوب الإسلام ودوله وجماعاته .

— والذى يؤمن بثقافات الإسلام وحضارته ومبادئه وأيديولوجيته الفعالة فى الحياة .

— والذى يؤمن بإمكان الالتقاء الفكرى بين الإسلام والمفكرين المنصفين فى العالم . وبأن الحياة الإنسانية ومستقبل السلام العالمى لا يمكن لهما النماء والازدهار إلا فى ظلال مبادىء الإسلام .

ولا زلت أذكر قول شو : إن الإسلام سوف يملك العالم فى يوم من الأيام .

وهذا هو ما أمثله فكريا ، وهو ما أفدته من ثقافات الأزهر العتيد العريق .

والفكر هو مادة الأدب ، وتجىء التجربة لتحدد له طابعه ، والعاطفة لتكسوه الحياة ، والخيال ليحدد له الأسلوب ، ثم يجىء اللفظ ليبرزه صورا تامة التأثير والقوة والجمال والإمتاع .

ولا يمكن أن ينقطع فى رأيى الالتقاء الإسلامى بين أمم الإسلام

وجماعاته وشعوبه فى يوم من الأيام ، وهو مايمثله الحج الإسلامى فى مغزاه الروحى العميق ، عاما ، بعد عام ، بعد عام .

وتمثل الثقافة والفكر ، وبخاصة الفكر العربى الأدبى الأصيل ، ذروة الالتقاء بين المفكرين العرب الاصلاء من طبقات المثقفين الملهمين ، شعراء وأدباء ونقادا وكتابا . وهو التقاء ضرورى لحاضر العالم العربى ومستقبله ، وهو ماأدعو إليه طيلة حياتى ، وما عملت له فى رابطة الادب الحديث بكل جهدى وطاقتى المحدودة ، وما أمثله فى كثير من كتاباتى . ولا يتم تأثير هذا الالتقاء الفكرى على الصعيد العربى إلا إذا كان على أسس واضحة : من الدين واللغة والتراث والتاريخ وخصائص الحضارة العربية الاصيلة .

وليتنى أرى ثمرات هذه الالتقاءات الفكرية ، على الصعيدين الإسلامى والعربى . تتحقق فى يوم من الايام .

إذا أكون قد عشت أحلى انتصارات حياتى ، ويكون كفاحى الادبى قد أثمر أجل الثمرات .

— ٣ —

وفى رأيى أن الحرب التى أعلنتها أوربا على الإسلام منذ قرون طوال ، والتى تمثلت فى أخطر قوتها وماديتها فى الامبراطورية الرومانية الشرقية أو البيزنطية ، ثم فى الحروب الصليبية ، ثم فى حركة الاستعمار الغربى الحديث للعالم الإسلامى والعربى .

لازالت هى الفكرة السائدة فى سياسة أوربا وأمريكا اليوم ، أو هى جوهر سياستهما حيال منطقة الشرق الاوسط .

وهذه هى الحقيقة الكبرى لكل مشكلات عالمنا العربى اليوم .

فلكى توقف أوربا وأمريكا نمو العرب والإسلام خلقت إسرائيل فى وسط المنطقة العربية فى الشرق الاوسط ، وتعاونت مع روسيا المادية لكى تغزو العالمين الإسلامى والعربى بماديتها الإلحادية الجدلية ، وعملت على تحطيم القوة العربية النامية فى حروب مستمرة ، تعمل عملها فى إنهاك القوى الصاعدة فى شعوب منطقة الشرق الاوسط ، ، كما عملت على تحطيم صلابة الجماعات العربية التى يمكن أن تقف فى وجه هذه الروح الصليبية فى يوم من الايام .

ومن هنا يمكن أن تتصور صميم مشكلات عالمنا العربى اليوم وغدا وبعد غد .

ولا علاج لكل هذا إلا بتقوية صلابة الشعوب العربية والإسلامية عن طريق الدين . الدين وحده ، لانه الخط الوحيد الذى سينتصر فى معارك الحاضر والمستقبل .

ولا بد أن ينتصر فى يوم من الايام .

فلسفتى فى الحياة

— ١ —

الحياة صور مكرورة معادة جيلا بعد جيل ، وعصرا بعد عصر .

أحداث الحياة والسياسة والاجتماع والتنافس العلمى وحقد النظراء بعضهم على بعض كلها صورة مكرورة فى الحياة .

والابن لايحب أن يتلقى تجارب أبيه فى الحياة كما حدثت ، ولا أن يراها بمنظاره ، ولكنه يستأنف الحياة جديدة أو يخيل إليه أنها جديدة ، ويعيش تجاربها كأنما تحدث فى الواقع لاول مرة ، وبذلك يطول زمن التجربة جيلا بعد جيل ، وتقطع الإنسانية زمنها وأفكارها بسرعة السلحفاة .

وليس كالإسلام يختصر الزمن ، ويرسم القدوة الصالحة ، ليوفر الوقت أمام كل جيل ، حتى يفرغ للجديد من حياته ومشكلاته .

وقد عشت لا أتلقى تجربة أحـــد ، بل أعيش تجارب الحياة جديدة أو كالجديدة ، أنظر إليها بمنظارى الشخصى ، وأشاهدها بفكرى وحدى ، ولا أعتمد على أحد فى تجربة ولا فى حكم ولا فى مقياس ، ولا فى عمل يجب أن أقوم به أنا وحدى ، ولم يكن بجوارى موجه من أب أو أخ أو أستاذ أو صديق ، وكانت أمى بتجاربها القروية الساذجة الحكيمة تسد بعض فراغ نفسى فى حياتها .

ومن ثم عشت زمانا طويلا حتى عمقت التجارب فى نفسى ، وحتى أصبحت أحيا حياتى فى ضوء فلسفتى الخاصة التى أسير عليها ، وأحكمها فى موازين الأمور فى كل شىء فى قولى وسلوكى وتفكيرى .

واستقلال الإنسان بتجارب حياته شىء ممل ، وقد يكون ضرورة لاختلاف حياة الأجيال المتعاقبة وتجاربهم وآمالهم ومثلهم ، ومن شأنه أن يعوق التقدم ، ويؤخر حركة الإبداع والتجديد المستمر ، ولكن الإسلام يوفر على الإنسان تجارب كثيرة أمامه ، بما رسم من مناهج السلوك ، ومن القدوة الصالحة ، ومن مذهب الإنسان فى الحياة ، وبما وضح من مغاليق الكون وخفايا الوجود ، وأسرار الخليقة ؛ ولا يبقى أمام الإنسان إلا تجارب حياته الشخصية ، وهى كذلك يضىء الإسلام كل ظلمتها للإنسان ، يحثه على الأمل والطموح والعمل . وعلى شرف المسلك . واعتدال المذهب ، واستقامة القصد ، وإنسانية الوسيلة والغاية ، وهذا من شأنه أن يوفر للإنسان الوقت وأن يختصر له زمن التجربة ، وأن يجعله يتمتع بحياته كاملة غير منقوصة .

وقد عشت على ضوء كل هذه المبادىء ، مسترشدا بها ، ساعياً فى طريق على ضوئها ، لا أكل ولا أمل ، أقتبس من سمو الروح ، وشرف الغاية ،

وإنسانية الوسيلة ، مايجعلنى شخصاً مستقلا مدركا لهدفى ، متسامياً فى كل جوانب تفكيري وعملي ومنطقي وخيالي وتصوري للأمور .

— ٢ —

ولم يكن ادبى كذلك تقليداً لأحد ، ولا محاكاة لسابق أو لاحق ، ولا تأثراً بأدب أحد ، بل هو من صدى حياتى ونفسى وتجاربى وفكرى الذى لا أشعر أنى مدين فيه إلا لكفاحى الأدبى الطويل المستقل .

وسلوكى فى الحياة أساسه الفلسفة الدينية والسلوك الروحى ، ومع ذلك فإن الإنسان لو استطاع التوفيق بين الدين والواقع فى حياته لكان أكبر فيلسوف فى عصره . ومن الذى يستطيع هذا التوفيق ، إن العقيدة شيء والتطبيق العملى عليها يكاد يكون شيئاً صعباً غاية الصعوبة ، ولم يتح هذا التطبيق العملى إلا للقليل من الناس ، وأشهد أنى جمعت بين المبدأ والقدرة على التطبيق عليه بقدر استطاعتى وإن لم يكن تطبيقاً كاملا تاماً ، وهذا هو سر شخصيتى .

كنت أكثر لداتى وأبناء جيلى إدراكا للمثل الأعلى ، وجدا فى الوصول إليه ، وطموحا فى إدراك غايته البعيدة ، وسعياً لبلوغه بكل مافى وسعى من طاقة ، وكان طريقى إلى هذا المثل الأعلى طريقاً نظيفاً سليما مثالياً ، لاأتلق فيه معونة أحد ، ولا أحياً فيه إلا بكفاحى وجهادى الشاق الطويل ، وهذا هو سر عصاميتى وسر حياتى ، وهو مايوضح كل خفايا هذه الحياة التى عشتها .

وعشت ، كلما اختل ميزان التطبيق فى يدى بين مثلى وعقيدتى وبين سلوكى وعملى ، أجدنى حينئذ برما بالحياة ، ضيق الصدر بها ، كثير الألم لتعثرى فيها ، وكان ضميرى دائماً يقظاً لايسكت ولايجامل ولايتعثر .

ومن ثم كانت الاستقامة وكانت البساطة والتوسط فى الحياة شعارى دائماً ، وهى كلها تنبع من أعماق نفس إنسان استيقظ ضميره ، ونام هواه .

هل كانت هذه الاستقامة التى عشتها سلوكا أصيلا فى نفسى وحياتى ، أو أنها أثر لعجز قدرتى عن سلوك طريق غيرها ؟ لاأدرى ، وكل ماأتصوره أنها كانت فلسفة نابعة من نفسى لاتتأثر بشىء ، ولاتنبع من حياة محدودة ، ولامن عجز فى قدرتى ، ولامن ضيق ذات يدى فى جميع أطوار هذه الحياة .

— ٣ —

وبناء الإنسان لنفسه بنفسه شىء عسير شاق ، إذا سلك مسالك الجد والاستقامة والشرف ، وبخاصة فى عصرنا ، هـذا العصر الذى يطلق على الصدق والصراحة سذاجة وعلى الأمانة وتحمل المسئولية والبعد عن روح الأنانية والانتهازية « عبطاً » .

وعصرنا هذا أنانى وانتهازى بكل ماتدل عليه هاتان الكلمتان من معنى ، وفى حياتنا هذه نماذج غريبة كل الغرابة . .

— إنسان يملأ وقته كله ووقت جلسائه ومن يعاشرونه بالحديث عن نفسه وشرفه وطهارته ودينه .

— وإنسان يشغل وقته ووقت غيره فى الحديث عن الناس وعيوبهم وأسرارهم ومشكلاتهم .

— وإنسان يفترى على الناس كل منكر وزور وبهتان من القول .

— وإنسان لايتحدث ، ولـكن صدره يغلى حسدا أوحقدا لصديق له أصاب حظاً من مال أومنصب أوجاه أوذكاء .

— وهـكذا يختلف الناس فى طباعهم على أنحاء كثيرة ، والـكثير منها شاذ معوج .

وأشهد أنى برأت نفسى من كل هذه المعايب والنقائص والشذوذ ، وعشت أوثر التواضع ، والحديث عن الغير قبل الحديث عن النفس ، وأمدح العدو والصديق ، وأتحدث عن مزايا كل أحد التى تجمعت فيه .

وتلك ناحية من نواحى فلسفتى فى الحياة ، ومذهبى فيها ، وقد زادنى ذلك قدرة على بناء نفسى بنفسى ، وعلى الكد والسعى فى كل أطوار عمرى دون أن أتوكل على أحد ولا على تراث أب أو جد ، ولا على مال ونفوذ قريب أو صديق ، وتركت الزلفى والنفاق والرياء والأثرة وحب الذات ، وزهدت فى كل وسائل الشهرة فى الحياة . وعفت كل مايقبل عليه غيرى من متاهات العيش والسلوك والتفكير .

وبذلك عشت وحدى عيشة وسطاً لاتعقيد فيها ولاتنافر ولااضطراب .

— ٤ —

وأهم جوانب حياتى هى حب الإيثار واعتناقه مبدأ وسلوكا .

والإيثار يجعل الإنسان يبنى الحياة بعد أن يبنى نفسه .

ومن ثم بدأت ، وإن كان وقت البدء متأخراً ، فى أداء مسئولياتى نحو كل الناس وكل الحياة وكل الإنسانية :

وبناء الإنسان لنفسه ثم للحياة يحفزه على الإبداع وحب التجديد ، ويهبه طاقة حية من العمل ومن التفكير السليم ، ومن القدرة على صنع أشياء وأشياء .

وكذلك فهمت الحياة ، وعملت لها ، وسرت فيها وحددت لنفسى المسئولية فيها .

وليتنى أستطيع الوصول إلى كل ما أتمناه ، ليتنى أقدر على عمل أى شىء

يسعد الناس ، وما أصدق مايقول الشاعر إسماعيل صبرى :

أواه لو عقل الشباب وآه لو قـــدر المشيب

— ٥ —

وماذا أترك لابنى من بعدى

لن أترك له نسبا ولا جاها ولا نفوذا

ولن أترك له مالا ولا ثراء

ولكن سأترك له أعباء كثيرة ، كثيرة جدا ، سوف تدفعه إلى أن يعمل ويبنى من جديد .

وسأترك له مشاق صعبة ، وديونا كثيرة ، ولكنى سأترك له ميراثا حيا من الشرف والسلوك والعمل .

وقد تكون هى كلها ثروة فى يده ، يستطيع أن ينتفع بها فى حياته فى يوم من الأيام .

السحر الملهم

لماذا أحب السحر ؟

لماذا أعشقه ، وأعشق الخلوة فيه ؟

ولماذا صرت أعشق منه كل مرائيه ومعانيه ؟

لقد كان السحر رفيق الدائم طول حياتى ، وكم كنت أقضيه ساهرا فى يدى كتاب أو قلم أزاحم بهما منكب الحياة .

فى السحر كل الهدوء والخصب ، وكل الجمال والسحر ، وكل الإلهام والخير .

عشت حياتى سحرا كلها . أطالع وأبحث وأقرأ وأكتب ، كأنما كان السحر تربا لى فى الحياة

وأخذت من السحر حب الهدوء والصفاء والثراء والرجاء .

ليس أحلى عندى من سويعاته الجميلات أقضيها فى المطالعة ، أو فى التبتل والتصوف ، أو فى التأمل والتفكير .

وحياة مثلى يعطيها السحر الصديق معنى المثابرة والدؤوب والكفاح والجلاد ، وذلك هو لون حياتى .

حياتى القاسية الشاقة

حياتى الطويلة المريرة

حياتى التى لم أذق فيها يوما من الأيام طعم الهدوء

ولا البسمة الحلوة

ولم أر فيها لون الأمن والأمان

أنا المحروم

لقد عشت ..

عشت سنوات طويلة

محروما

محروما من بهجة الحياة

من ابتساماتها العذاب

من ضحكات الربيع فى قلبى

من إطلالة الفجر فى روحى

من عذوبة الندى أرش به جفاف حياتى

وعشت إنسانا شقيا تعس الحظ

يحالفنى الحرمان وأحالفه

يسير معى وأسير معه

يظلنى وأظلله

إنه صديق عمرى

صديق حياتى

ولماذا

لأنى جئت بعد أن جف النبع

بعد أن غاض الجدول

بعد أن أجدب الروض

وما بأيدينا خلقنا تعساء

ومع ذلك فقد عشت

عشت حياتى

مرزأ ومحسدا

يتحدانى الزمن والناس

وأقابل كل تحدياتهم بابتسامة ساخرة

بتواضع شديد

بأدب جم

بألم عميق

وحينا بتحد عنيف

فى كل مكان وعلى كل فم

نظرات الناس تحوى

ملؤها الاستغراب حينا

والحقد حينا آخر

والحسد حينا ثالثا

وأدع الناس وشأنهم

لأعمل ، وأعمل ، وأعمل

وتزيد تحدياتهم كلما عملت

وأذكر أن أديبا كبيرا أهدى كتابه فقال :

« إلى الذين لا يعملون ولا يحب أن يعمل الناس ، أهدى . . . »

وأنا بدورى أقول للناس كل الناس . .

إن لى فيكم أصدقاء

ولى فيكم أعداء ، لالشىء إلا للحسد ، ولأنهم يكرهون من أحد أن يعمل شيئا .

وأصدقائى أشركهم معى فى الظفر الذى أناله

وأعدائى أقابلهم بابتسامة حينا ، وبتواضع شديد حينا آخر ، وبحوار مقنع حينا ثالثا ، وبتحد أشد أخيرا ، وأخيرا جدا .

ومن من كبار النفوس أنصفتهم الحياة ؟

فلسفة التواضع

عيبى عند البعض تواضعى

تواضعى الكريم النبيل

تواضعى الانسانى المتسامح

وفى استطاعتى أن أتكبر وأتطاول على الناس

بأصولى

بثقافاتى

بعملى

بكفاحى

بكل ماوصلت إليه بكدى فى الحياة

فى استطاعتى أن أفتخر ، أن أقول

ولكن لماذا أقول ؟

ليس هناك أحد أجده يكبرنى فى أى شىء

ليس هناك إنسان يستطيع أن يقول عن نفسه : إنه نال من المجد أكثر مما نلت ومما أنال .

ومن طبيعتى ألا أتكبر إلا على الذين يظنون أنهم أعلى منى شأنا أو مقاما .

ومن دينى ألا أفكر فى التطاول على أحد وضعه القدر فى منزلة دونى .

وإذا كانت لى فى نفسى منزلة كريمة فلم أشوهها بوضعها دون مكانها الصحيح ؟

وإذا كان لى عند الناس ، أو عند بعضهم على الأقل ، شىء من السموق، فلم أهبط عنه فيما بينى وبين نفسى وفيما بينى وبين الناس ؟

لا أحب التطاول على إنسان مسالم لى

قد يكون مثلى

وقد يكون أقل منى

ولكن من يرى نفسه أعلى منى ويصر على رأيه فإنى له بالمرصاد .

ليس من الانسانية أن يعيش الانسان غرابا ينعب ، أو طاوسا يريد أن يلفت الناس إليه بريشه وهيئته ، أو صقرا يحب أن ينقض عليهم دائما ليخطف مافى أيديهم .

ولماذا لايعيش الانسان حماما وديعا ؟

ولماذا لايكون نسيما رقيقا لاإعصارا عاصفا

لماذا لا أكون ربيعا ناضرا ، لاشتاءا قارصا زمهريرا ، ولا صيفا قائظا يشوى الوجوه .

أرأيت الزهر الباسم

أرأيت النهر المنساب

أرأيت البدر الهادىء

إنى أنا ذلك البدر والنهر والزهر

إنى نسيم السحر ، وضوء الفجر ، وأغنية الأصيل

لاأحب أن أعيش معربدا

ولاأحب أن أحيا نقمة على أحد

ولاأحب أن يقال عنى : إنى عدو الحياة والإنسانية والإنسان والمثل التى أومن بها .

ياأعداء كل القيم

ليتكم تستطيعون أن تفهموا المثل الذى أضربه طول حياتى لخصوم الحياة ولأنصار السمو معا .

ولتحى كل معانى المحبة والخير والإيثار والتعاون بين الناس .

أكبر من السعادة

نلت السعادة

أو ماهو أكبر منها

فى ليلتين جميلتين

أضاءتا لى أعماق نفسى

وفتحتا أمامى مجالا واسعا للتفاؤل والأمل

ليلة جميلة(١) رأيت فيها صوتا سماويا عظيما يبشرنى : أبشر - أبشر - أبشر . وكان ذلك منذ أعوام(١) .

وليلة أخرى رأيته بصوته الملائكى العذب ، وأمامه خريطة الدنيا مضيئة ، وهو يتكلم ويشرح إليها ونحن جلوس فى مكان شبيه بقاعة محاضرات ، ونستمع ؛ ويطن فى أذنى الصوت حلوا جميلا كأنه نغم سماوى ساحر(٢) .

كانتا ليلتين جميلتين حقا ، لم أنسهما ، ولم أنس حلو مارأيت فيهما .

وكم أتمنى أن تعاودنى الذكريات ، وأن أسمع مرة أخرى ، إلى صدى الحقيقة ، وإلى كلمات هذا الصوت الرفيع تملى على كل جديد وطريف من أمور الحياة .

والله عز وجل أعلم وأحكم

---

(١) ليلة الرابع والعشرين من فبراير ١٩٦٧

(٢) ليلة السابع من ديسمبر ١٩٧٠ (الثامن من شوال ١٣٩٠ هـ)

وتعلمت ما لم أكن أعلم

وما أكثر مالم أكن أعلمه .

وظللت سنين طوالا لا أعلم .

ولكن الحقيقة تكشفت لى يوما بعد يوم .

وعلمت حقائق شغلت بها نفسى :

الحقيقه الأولى : أن الإسلام صادفه من التحديات ، ولا يزال يصادفه من التحديات مايزلزل الجبال ، ومن أهم التحديات الحضارة الغربية التى نعيشها بكل أبعادها ، والتى أبعدتنا عن الإسلام وأصوله وحقائقه وحياته وحضارته ، ولا تزال تبعدنا أكثر ، يوما بعد يوم ؛ ولسوف تتحطم هذه الحضارة القائمة فى يوم من الأيام وقريبا بإذن الله .

الحقيقة الثانية : أن الغرب ينسب كل شىء ثقافى فى حياتنا :

إما إلى حضاراته القديمة : اليونانية والرومانية أو قل الهيلنية ، وإما إلى حضارته الحديثة الغربية القائمة بيننا ، ليركز فى أذهاننا أننا بدونه فى القديم وفى الحديث لم نكن نصنع شيئا أو نقدر على التفكير فى شىء ، وهذا وهم كبير من الأوهام التى غرسها الغرب فى أذهان كثير من أجيالنا المعاصرة التى ابتعدت كليا عن الله .

الحقيقة الثالثة : أن منطق أرسطو فرض فرضا على الثقافة الإسلامية فى القديم عن طريق علماء المعتزلة وعلماء الكلام ، وفرضت كذلك علينا فلسفته ، ثم فرضت فرضا علينا فلسفات الغرب ومذاهبه الحديثة المعاصرة ، ويجب علينا أن نبدأ من جديد فى العودة إلى الفكر الإسلامى الأصيل وحده .

الحقيقة الرابعة : وطالما فكرت ما مصير الإسلام كقوة عالمية ؟ واهتديت إلى أنه سيبقى ، وسينبعث من جديد بإذن الله قوة عالمية بانية مجددة ، ولعل فكرة عودة المهدى المنتظر لاتبعد عن ذلك بحال من الأحوال ، وإن أعطاها الشيعيون ثوبا من الأثواب الملائمة لمذهبهم .

الحقيقة الرابعة : أن الصراع بين الشرق والغرب ـ وإن كان الشرق قد ألقى السلاح ـ لايزال قائما ، وسيظل قائما أمدا طويلا .

وسبحان ربى القادر على أن يكتب الخير لدينه وكتابه وعباده المؤمنين .

ماذا حدث ؟

سافرت إلى الخارج مرتين :

الأولى : إلى ليبيا حيث أقمت ثلاث سنوات كنت فيها مثلا للمصرى المقيم فى الخارج ، وكنت فيها أؤدى عملا شاقا لايستطيع إنسان أن يؤديه ـ ألقى على طلابى محاضرات فى الادب والنقد والبلاغة القديمة والادب المقارن والادب المهجرى والبلاغة الحديثة ، والنصوص ؛ وأدخلت دراسة مادة جديدة لم يعرفوها . هى الادب الليبى الذى درسته لطلابى لأول مرة فى تاريخ ليبيا ، وألفت فيه كتابا ضخما فى ثلاثة أجزاء لم يؤلف قبله فى مادته كتاب آخر ..

وألقيت على طلابى ثلاث محاضرات فى قاعة محاضرات الجامعة الاسلامية فى البيضاء ؛ وهى :

١ ـ مدرسة أبولو ألقيتها عام ١٩٦٤ .

٢ ـ الإسلام فى قيادة الإنسانية : عام ١٩٦٥ .

٣ ـ الثقافة الإسلامية : عام ٩٦٦ .

كل ذلك ومرتبى ضئيل ، لا يكاد يكفينى . ومع ذلك فقد أديت مهمتى بنجاح كبير .

والثانية : إلى المملكة العربية السعودية حيث درست لطلابى : الادب ، ومناهج البحث الأدبى وهى مادة جديدة دخلت فى مناهج الدراسة لاول مرة ، وسوى ذلك .

وألقيت على طلابى محاضرتين :

الاولى عن خلود الإسلام - أواخر عام ١٩٦٩ .

والثانية عن غد الإسلام - أواخر عام ١٩٧٠ .

وكتبت لهم نظريات جديدة فى الادب والنقد والشعر وغيرها . .

وكنت خلال ذلك الاستاذ الرائد الموجه الذى يؤدى واجبه على أحسن الوجوه وأكملها . . . .

لقد كان ذلك كفاحا مفروضا على ، وقمت به على خير وجوهه بحمد الله وعونه .

ولا أنسى أننى أدخلت فى حياة الطلاب فى المملكة العربية السعودية الاهتمام بالادب والشعر والنقد والمحاضرة والخطابة والأمسيات الادبية والمهرجانات الشعرية ،وهى أشياء لها مدلولها فى ثقافتهم وفى تكوينهم العقلى .

ولم أكن فى كلتا الرحلتين باللاهى أو المقصر ، بل كانت كل دقيقة من وقتى أبذلها فى العمل وأداء الواجب وتحمل المسئولية إلى آخر الشوط .

ووفق الله وأعان ، وخرجت من كلتا الرحلتين مجهدا غاية الإجهاد ، ولكن صورة عملى كانت فى كل مكان وهكذا كان .

وأدعو الله أن يجعل عملى خالصا لوجهه الكريم ، إنه سميع مجيب الدعاء . .

أغنية إلى الإنسان

الإنسان الذى يحمل وجه الحياة .

الذى يغرس بذور الحضارة .

الذى حمل مشاعل الرسالات فى الارض .

الذى قاد الحياة إلى شاطىء الخير والسلام والحضارة والتقدم والإبداع .

الإنسان العربى المسلم ، الذى يردد مع الشاعر العربى عبد الله بن خميس :

شرفى ماعشت أنى مسلم نسبى هذا ، وهذا مذهبى

الإنسان الذى مهر الحرية دمه وحياته ، ودك جدر الظلام .

وجعل السادرين فى الظلام يفيقون ، ممن اتخذوا كؤوس خمرتهم من جماجم المستضعفين المعذبين فى الارض .

هذا الانسان ابن الحياة وابن السماء .

الصاعد إلى الشمس .

والهابط على أرض القمر .

والممعن السير فى الفضاء .

محطم جدران الشر والدياجى والأمسيات الحزينة ، وهو يناجيها فى إصرار فيقول مع الشاعر التونسى الطاهر الهمامى :

ياجدار .

ياجدار .

لوتخز ، آه ، لوتنهار .

ياعدو الشمس .

يا أصم .

يا أصم .

إلى القرار .

إلى القرار .

لسوف أعيش أغنى ، للإنسان ،للحياة التى أبدعتها يد الإنسان ، للأمل، للخير ، للبسمة على وجه الطفل والشيخ الهرم والفتاة العذراء .

لسوف أحيا أغنى .

لانتصارات الإنسان .

لعهد جديد فى موطنى .

يشرق فيه الآمل فى كل قلب .

ويتردد فيه البشر والبسمة على كل فم .

وتنعم بالرفاهية والسعادة فيه كل روح .

لسوف أحدو قافلة الإنسان على الضفاف .

لتسير إلى مانريد أن تسير إليه .

من أمل لا ألم معه .

من رفاهية لايرى الشقاء له معها سبيلا .

من إيمان بكرامة الإنسان لا ينفذ معه العبث إلى حرماته ومقدساته ، لينهال عليها كسرا وتحطيما .

سوف أظل وفيا لكل القيم النبيلة فى الإنسان .

لكى يحيا ، ويعمل ، وينضر وجه الارض الطيبة بإبداعه ، بفكره ، بروحه المجددة الصناع .

وليتنى أرى وجه الحياة الكريمة يطل بابتسامته الحلوة على كل بيت ،

على كل قرية ، على كل مدينة ، على الضفاف الخضر الساعية فى كد إلى أرفع مثل الحياة .

وليتنى كنت أنا بسمة فى كل ثغر

زهرة ناضرة فى كل روض

جدولا منسابا فى كل منعطف

غمامة ممطرة فى كل أفق

تحية وديعة على يدى صديقين يتحدثان ويتناجيان

لأنضر وجه الحياة

لأذوب الضوء فى كل أفق

لأقول للإنسان فى بلادى :

لقد جاء الربيع

جيلى المعذب

حقا إن جيلى هو جيل المعذبين من الناس ، ولا تعذ من حياتى مثلا لحياة جيلى ، ولو على وجه التقريب :

شاهدت حرب عالميتين كبيرتين

وشاهدت ثلاثة حروب فى منطقتنا العربية ، حرب عام ١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، و ١٩٦٧ .

ورأت عيناى شيئا غريبا لم يكن يتصور عربى أو مسلم فى يوم من الأيام حدوثه وهو قيام إسرائيل عام ١٩٤٨ ، بمؤازرة الاستعمار والصليبية والشيوعية والصهيونية العالمية ، والامبريالية الأمريكية .

وكانت الانتكاسات والهزائم التى وقعت على رؤوس جيلى كالصاعقة ذات أثر كبير فى حياتنا .

وشاهدت البلاد العربية أو كثيرا منها تنتفض بثورات جديدة ، تطلب بها تغيير معنى الهزيمة التى منيت بها ، وفى مقدمتها ثورة مصر .

وشاهدت مدلولا آخر للحرية غير المدلول الذى يفهمه العالم ، يتمثل فيما سجله شاعر(١) إذ يقول :

وصيتى ياصانعى السلام
وصيتى يارافعى البنود
أن تصنعوا لجيلنا النعوش
أن توصدوا من دونه السبل
أن تكتموا الصراخ فى الحلوق
أن تحقنوا القلوب بالشلل
أن تطفئوا الشعاع فى الشروق
أن تحرقوا براعم الأمل
لأنها وإن بدت صغيرة
فعطرها يفوح فى الدروب
وكفها وإن بدت قصيرة
ستكشف النقاب للشعوب
وصيتى أن تذبحوا الحقيقة
وعندكم غرائب الحيل

---

(١) هو شاعر مجهول اسمه محيى الدين عطيه

قولوا لقد خانوا البلاد

تنكبوا مسيرة الجهاد

قولوا ، فقولكم جلل

مادامت الأبواق فى أفواهكم

وسطوة الأقلام فى يمينكم

وألف ألف سوف يسمع الدجل

ويرقصون حولكم رقصة البطل

وينشدون خلفكم : هبل ، هبل

ويصرخون بعدكم : بطل ، أجل ، أجل ، أجل

وشاهد جيلى فى مطلع حياتنا عدة ثورات وطنية كبيرة ، من بينها ثورة ١٩١٩ ، و ١٩٣٥ ، و ١٩٤٦ ، وقد اشتركت فى الأولى صغيرا ، وفى الثانية شابا ، وفى الثالث رجلا .

وشاهد جيلى اكتشاف القنبلة الذرية ، وإلقــاء أول قنبلة منها على هيروشيما ، والثانية على ناجازاكى ، ثم ابتكار القنبلة الهدروجينية ، والصواريخ العابرة للقارات ، ثم صعود الإنسان إلى القمر فى ١٩ من يوليو عام ١٩٦٩ .

وشاهد جيلى مقتل موسولينى وانتحار هتلر

وشاهد كذلك مقتل أحمد ماهر والنقراشى وحسن البنا وعزل فاروق ومقتل نورى السعيد وفيصل الثانى ملك العراق . وعبد الكريم قاسم ؛ وعزل الملك الادريس السنوسى ، وقيام ثورة العراق فى يوليو ١٩٥٨ ، وثورة السودان فى مايو ١٩٦٩ ، وثورة ليبيا فى سبتمبر ١٩٦٩ .

وشاهد كذلك جلاء الانجليز عن منطقة القنال فى مطلع عام ١٩٥٥ ،

وتأميم القنال فى يوليو ١٩٥٦ ، وقيام الوحدة بين مصر وسوريا فى فبراير ١٩٥٨ ثم قيام الانفصال فى ٢٨ من سبتمبر ١٩٦١ ، وقيام الوحدة الثلاثية فى سبتمبر ١٩٧١ .

وشاهد جيلى حرب اليمن (١٩٦٢)

ووفاة عبد الناصر فى ٢٨ سبتمر ١٩٧٠ وأحداثا كثيرة . كثيرة . كثيرة

ورأيت قيام الدولة الشيوعية الصينية ، وقيام الشيوعية فى كوبا ، وتقسيم كل من كوريا وفيتنام إلى دولتين شمالية وجنوبية .

وشاهدت الحرب الكورية ، والحرب فى الهند الصينية ، وحرب فيتنام

وشاهدت مأساة زنجبار والإسلام فى زنجبار وشاهدت كل أحداث العالم فى القرن العشرين فماذا يمكن أن تكون هذه الأحداث قد تركته للناس من فراغ أو هدوء أو فرصة للتأمل .

أليس جيلى بحق هو جيل المعذبين من الناس .

وبعد قليل وفى آخر يناير من عام ١٩٧١ سوف تقوم سفينة الفضاء أبولو ١٤ برحلة جديده إلى القمر ، روادها الن شيبارد وميتشيل ، ورروزا.

ومع ذلك لحياه جيلى لن تغيرها رحلات الفضاء ، كما أنه لم يغيرها اكتشاف مناجم البترول فى باطن الأرض والبحار العربية .

ويعبر الشاعر أحمد الصافى النجفى عن حياة جيلى فيقول من قصيدة جديدة له بعنوان « حياة التشرد » :

قد اخترت منذ القدم عيش التشرد ... لفقرى ، وللفوضى ، وحب التجرد
وما زلت فيه ، رغم مانلت من غنى ... فلى فيه أضحت لذة المتعود
ولو أننى أسلو التشرد عادتى ... فكيف سلوى رفقتى فى التشرد؟
همو رفقتى حقا : وشعبى ، وأمتى ... وعملكتى فى كل صدق وفدفد

أجمل مناظر الحياة

- ١ -

عشت ماعشت لم أر مثله منظرا جميلا رائعا خالدا له مدلوله الروحى والانسانى والحضارى .

منظر الحجاج فى المسجد الحرام يملأون أرجاءه وردهاته ، متجهين إلى الكعبة المعظمة فى خشوع وإكبار .

ومنظر الحجاج يرمون الجمار فى منى ، وكأنهم الموج الهادر ، الذى ليس تحده نهاية .

أروع مناظر الحياة ، وأجملها هو هذان المنظران ، اللذان شهدتهما ، وشهدهما معى آلى ، وشهدهما كذلك الحجاج إلى بيت الله ، وأدعو الله أن يشهدهما المسلمون إلى آخر عام من أعوام الدنيا .

منظران فريدان جليلان ، يمثلان مؤتمرات الإسلام الكبرى التى ينتظمها الحج إلى البيت الحرام .

ولعله لأجل هذه المؤتمرات التليدة كان الحج وشريعته المقدسة .

أيها المسلمون :

تمتعوا بمنظر إخوانكم المسلمين فى المسجد الحرام ، وهم يلبون ويكبرون ، ويتجهون فى عبودية لله وحده إلى بيته الحرام الكعبة الشريفة .

وتمتعوا بمنظر البحر البشرى العتيد مواكب الحجاج فى طريقهم لرمى الجمار .

فإن أعينكم لن تقع على مثل هذه المواكب الفريدة الباهرة الخالدة

إنها مواكب الروح

مهرجان الحرية

مواسم الإنسانية الكبرى

أفراح المؤمنين التى لاتدانيها أفراح أخرى ، إنها أكرم وأعظم وأنبل اجتماع يعرفه العالم ، وتعيه آذان الحياة .

— ٢ —

ولقد شاهدت فى عامين متتاليين مواسم الحج الكبرى وأنا أؤدى هذه الشعائر المقدسة عامى ١٣٨٩ هـ و١٣٩٠ هـ ، أثناء وجودى فى المملكة العربية السعودية للتدريس فى كلية اللغة العربية فى الرياض ، وأدعو الله تبارك وتعالى أن يجعل لى فى مشاهدة موسم الحج أعواما طويلة مديدة لاتنتهى أبدا .

الحياة القصيرة ـ أثناء موسم الحج ـ فى مكة المكرمة ، تشعر المسلم لأول وهلة بحياة الإسلام الأولى فى مكة ، وبجهاد الرسول وصحبه الأبرار الخالدين من أجل الرسالة والدعوة وتبليغ كلمة الله إلى الناس ، وتجعله يعيش الأيام رائعة جليلة فى موطن الرسول الأعظم ، وفى شعاب هذا الموطن الخالد التى شهدت انبثاق النور الإلهى ، فهنا غار حراء حيث نزل القرآن الكريم ، وهناك غار ثور الذى آوى إليه الرسول صلى الله عليه وسلم فى هجرته إلى المدينة وهنا شعب على ، وهنا ، وهنا ، الكثير من معالم الإسلام الأولى الخالدة .

والحياة فى مكة تقف المسلم لأول وهلة أمام الكعبة المعظمة قبلة المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وأول بيت وضع للناس مباركا وهدى للعالمين ، وبناء إبراهيم واسماعيل ، ومنارة التوحيد فى الأرض والإنسانية كافة ، حيث يتجه إليها الناس من كل مكان ، ويلتقون أمامها على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وشعوبهم وأقطارهم ، شعارهم « لبيك اللهم لبيك لاشريك

لك لبيك ، إن الحمد والنعمة والملك لك » ؛ وفى رحاب الكعبة المعظمة يزداد المسلم يقينا بربه ودينه وكتابه ورسوله ، ويزداد ألفة ومحبة لأخيه المسلم مهما تباعدت الديار ، وتناءت الأمصار والأقطار ، وفى ظلال الكعبة يذكر المسلمون جهاد إبراهيم وإسماعيل ومحمد عليهم السلام من أجل نشر التوحيد فى الأرض ، « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ، ولم يك من المشركين : شاكرا لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا ، وماكان من المشركين » . « قل إنى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ، ملة إبراهيم حنيفا ، وماكان من المشركين ، قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ، ومماتى لله رب العالمين ، لاشريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » . إن الكعبة كما يقول الكثيرون من المفكرين المسلمين علم الله المركوز فى أرضه ليثل للناس أوضح معانى أخوتهم ، وليرمز به إلى أقدس مظاهر وحدتهم .

الطواف ببيت الله رمز إلى رفض الشرك ونبذ الأوثان ، والكفر بالطواغيت ، وتوجه من الإنسان إلى الله وحده لا شريك له . وأعمال الحج وشعائره جميعا توحى بالطاعة والتمرد على الشر والاخلاص لله وحده ، والإيمان به وطاعته دون سواه ، والخروج على كل وصاية بشرية على الإنسان ، وإلقاء زمام الإنسان ومقادته بيدى ربه وحده إلها قادرا خالقا مهيمنا ومسيطرا على مصائر الناس والوجود والحياة .

والوقوف بعرفة ورمى الجمار رمز واضح للتوحيد وللعبودية الكاملة ، وللإيمان المطلق ، وتسليم لله ، وطاعة له ، وكفر بما سواه . وفى نحر الهدى شكر لله على فداء إسماعيل ، وعلى تكريمه عز وجل للإنسان بتحريمه ذبح البشر باسم أى طاعة أو قربان لله عز وجل ؛ وكل زيارة لمكة لأداء العمرة أو فريضة الحج فهى تكريم لعمل إبراهيم وإسماعيل فى رفع قواعد البيت

وإرساء بنيانه ، وشكر لله على توفيقه لنبيه أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام فى بناء البيت وجعله منارة للناس وأمنا ، وهو إجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام التى استجابها الله عز وجل ، إذ تضرع إليه وهو يقول : « رب اجعل هذا بلدا أمنا وارزق أهله من الثمرات ؛ من آمن منهم بالله واليوم الآخر » ، ويقول : ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ، ربنا إنك تعلم مانخفى ومانعلن ، ومايخفى على الله من شىء فى الأرض ولا فى السماء ، الحمد لله الذى وهب لى على الكبر اسماعيل واسحاق ، إن ربى لسميع الدعاء ، رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ، ربنا وتقبل دعاء ، ربنا أغفرلى ولوالدى . وللمؤمنين ، يوم يقوم الحساب » .

إن الحج لون من التدريب العملى على مجاهدة النفس والهوى والشيطان وعلى الانتصار لفكرة الإيمان والحياة والتقدم والسعى من أجل القيم الرفيعة التى تعتز بها الإنسانية والانسان . وفيه مافيه من الاندماج فى حياة روحية مثلى تمتلىء فيها القلوب بمحبة الله ، وفيه مافيه من السياحة فى الأرض إجابة لأمر الله عز وجل ، واعتبارا بمظـــاهر قدرته فى الأرض والسماء والبحر والهواء .

وفى مؤتمر الحج تأكيد لميثاق يعلنه المسلمون جميعا ، ويتبايعون عليه بطاعة الله وحده ، وإقامة شريعته فى الأرض ، وتذكير بعظمة الرب المعبود وحقارة ماديات الحياة ووساوسها وفتنها وزينتها ، وتصوير لمواقف الآخرة وللجمع الأكبر فى عرضات يوم القيامة ، أمام الله العلى الأكبر .

— ٣ —

ولقد كان من أيمن الفأل ، ومن الطالع السعيد للمسلمين ، أن كان الوقوف

بعرفة عام ١٣٩٠ هـ فى يوم جمعة ، وقد احتشد فى مشاعر الحرام فى عرفة وعلى جبل الرحمة نحو المليون والنصف من المسلمين ، وكلهم ابتهال إلى الله عز وجل أن يعيد للاسلام مجده ، وللمسلمين عزتهم ، وأن يبصرهم بربهم ودينهم ، وبالعودة إلى حظيرة كتابهم المقدس الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

ولقد قمت من الرياض عام ١٣٩٠ هـ فى الخامس من ذى الحجة ومعى أسرتى ، وذلك يوافق أول فبراير عام ١٩٧١ م ، وفى اليوم نفسه وصلنا إلى الطائف ، ونزلنا فى أحد فنادقها ، حيث أحرمنا بالحج وتوجهنا فى صبيحة اليوم التالى إلى مكة المكرمة ، فطفنا طواف الحج ، وظللنا محرمين إلى أن وقفنا بعرفة ، وقضينا ليلة عرفة فيها ، فى إحدى الخيام التابعة للمطوفين فوزى يمانى ، وحسين عطار ، وبعد مغرب يوم عرفة توجهنا إلى منى ، وظللنا بها أيام الجمار الثلاث ، ثم عدنا إلى مكة المكرمة ، فطفنا طواف الإفاضة ، وأحرمنا بالعمرة وأدينا مناسكها ، وقضينا يومين فى رحاب بيت الله ، ثم عدنا إلى الرياض فى الرابع عشر من ذى الحجة ، حامدين الله على توفيقه ، ضارعين إليه أن يجعل لنا حظا دائما ، ونصيبا موصولا من زيارة بيته الحرام كل عام .

المنتصر دائما

وقف محمد الرسول والانسان موقف المنتصر دائما

المنتصر فى وجه خصوم الرسالة وأعدائها

المنتصر فى الحرب

ومع ذلك كان هو المنتصر فى السلام

المنتصر لحرية الانسان وكرامته فى الحياة

عبر ثلاث وعشرين سنة كان النور المضىء لآمال الإنسان ولعزته وسعادته .

لم يفتح سجنا ، ولم يقيد إنسانا ، ولم يغل حرية أحد .

خاصمه وحاربه أهل مكة فانتصر عليهم ، ومع ذلك فانه لم يذل أحدا ، ولم يلق بأحد فى الظلام ، لاعتبارات أمن ، والحياة من حوله كانت تدعو إلى أن يحسب لأمنه وأمن أصحابه وأمن أمته ألف حساب .

فأين هذا من القادة الذين يلقون بالناس لسبب ولغير سبب فى غياهب الظلمات ؟

وأين هذا من الذين يجعلون اعتبارات الأرض مسوغا لكل شىء ، ولكل فعل ، ولكل عمل يتنافى مع أبسط قواعد حقوق الانسان .

ولم يجمع محمد الرسول والانسان أهل مكة فى مكان يحيطه بالأسوار .

ولم يأخذهم إلى حيث يحول بينهم وبين حرياتهم وبينهم وبين الحياة .

ولم يتخذ من انتصاره عليهم سببا لأى عمل قد يفكر فى اتخاذه غيره من الناس .

ولكنها المخالفة الصارخة لحق الانسان ولحرياته تصبح فيما بيننا قاعدة للعمل ، وسببا لانتهاك الحرمات ، وللاعتداء على الحريات ؛ ومن أوربا جاء المثل ، وأخذت القاعدة ، وكان التشريع والقدوة ، أوربا المؤتمرة بالحرية ، لا أوربا المنتصرة لها .

ويقتل بجرم الخليفة عمر ، فينهى عمر وهو فى اللحظات الأخيرة ، أن يؤخذ بجريرة هذا المجرم غيره من الناس ، وأن يمثل به أو يخالف حكم الله فيه ، ويضرب بذلك للعالم كله أعظم مثل فى التاريخ على وجه الأرض .

ومن حولنا تدبر الأحداث تدبيرا مصبطنعا . ويتخذ منها ـ بعدحدوثها على مادبرت عليه ـ سبب لعمل كل شيء ، ولسلوك أية خطة ، وللانتقام كما يشاء الهوى من كل من يريـــدون أن يذهب به الانتقام إلى حيث يريدون .

حتى فى الأمور العادية يرسم الراسمون لها التدبير ، ويخططون على ضوئه ، مايريدون من أمور وأمور .

والأمثلة على ذلك كثيرة ، ومن أغرب ذلك حادثة مصطنعة اتخذت ذريعة للتشهير بقاضيين مشهورين ، من أجل التمهيد لعمل كان يعد فعله شيئا غريبا لايخطر على بال .

ليت الانسان يؤمن دائما بحقوق أخيه الانسان ، فى أى موقع يكون ، ومن أى منطلق ينطلق ، وبأى منطق يتحدث .

حينئذ تبتسم الحياة .

ويشعر الانسان بقيمته فيها .

ويفتخر بانتمائه إلى جماعة إنسانية تعتز دائما وفى كل موقف بقيمة الانسان فى الأرض .

ومن الإسلام وتاريخ خلفائه يجيء المثل ، وتتخذ القدوة ، ويكون السلوك ، ويصح المنطق .. وما أعظم الاسلام مشرعا عظيما للحياة ، ومنقذا كريما للإنسان وللانسانية وللشعوب .

فلسفة القوة فى العصر الحديث

القوة فى عصرنا هى كل شىء . .

القوة هى مصدر النجاح والسعادة للفرد وللأمم والشعوب .

لم يعد الناس يبالون بالحق فى شىء .

كان منطق الامم القديمة هو القوة .

وجاء الاسلام ليعلن مبدأ جديدا هو الحق حتى قال خليفة المسلمين عمر لشعبه : ألا إن أضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه ، وإن أقواكم عندى الضعيف حتى آخذ الحق منه .

والقرآن الكريم هو الذى شرع مبدأ الحق ونظمه ورعاه ودعا إليه . . إن الله يأمر بالعدل والإحسان . . إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات ـ أى الحقوق — إلى أهلها .

والحديث النبوى مملوء بالدعوة إلى مبدأ الحق ، وبذلك قلب الاسلام فلسفة الجاهليين ومبدأهم الأشهر ، وهو مبدأ القوة ،

ولم يلبث العصر الأموى أن عاد إلى طابع الجاهليين فى حمق شديد ، عاد إلى القوة ، حتى قال الشاعر جرير :

إذا نزل السماء بأرض قوم   رعيناه وإن كانوا غضابا

والمراد من السماء المطر ، والمراد من « رعيناه » رعى ما ينجم عنه من عشب وكلأ .

عاد الناس إلى فلسفة القوة ، وإن بقى الاسلام يشرع الناس فلسفة الحق ، وبذلك نشأت ازدوجية عند كثير من الناس . . دينهم يأمرهم بالحق . وأخلاقهم البشرية تأمرهم بالقوة .

وجاء عصر الاستعمار الأوربى الحديث .

فجعل القوة هى الحق .

وجعل نهب - ثروات الشعوب حقا له ،

وجعل الشعوب الضعيفة - ملكا مقدسا له ، واتخذ منها مستعمرات ، ونهب أملاكها وثرواتها دون مبالاة ودون تقيد بشىء .

لقد سار الغرب على مبدأ المكيافيلية الجشعة المتلصصة التى تجعل الغاية تبرر الوسيلة فى كل شىء .

وعالمنا اليوم فلسفته القوة وحدها .

ومن أيام زار نيكسون الرئيس الأمريكى بعض دول أوربا ، وزار أسطوله فى البحر الأبيض المتوسط ، وباهى بقوته الى لاحدود لها وكان الاسبوع الأخير من سبتمبر عام ١٩٧٠ .

قال نيكسون كما تقول جريدة الحياة البيروتية فى عددها الصادر فى الثالث من تشرين الأول ١٩٧٠ :

لقد جئت إلى هنا لأؤكد وجودا قويا للولايات المتحـــدة فى هذه المنطقة .

ولأشاهد بأم عينى أقوى قوة بحرية على سطح الأرض وفى المحيطات .

وإننى أقول هنا بكل تواضع : إننى رئيس لأقوى أمة فى العالم .

والتفت نيكسون إلى بحارة حاملة الطائرات « سارا توجا » الأمريكية التى كان يقف على سطحها :

— صدقونى أنه لم يسبق لقوة الولايات المتحدة أن استخدمت بمثل

الفعالية والتأثير التى استخدمت به فى الأسابيع الأخيرة فى منطقة التوتر بالشرق الاوسط .

- وعند ما تبلغ قوتنا الحجم والقدرة التى هى عليها الآن فتلك هى الطريقة التى نوفر بها على أخصامنا تجربة الدخول فى صراع معنا .

وعدت إلى الوراء سنوات طوالا لأتذكر قوة الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد امتلاكها للقنبلة الذرية ، وكيف ألقت بثقلها مع عصابات اليهود لتقيم لهم دولة فى أرض فلسطين .

وعندئذ جعلت أستغفر للعرب ، الذين كان الاستعمار الغربى مايزال رابضا فى ديارهم ، والذين لم تكن عندهم أية قوة على الإطلاق ، والذين وقفوا وحدهم ليعارضوا إقامة دولة صهيونية فى أرض فلسطين العربية ، والذين كانت دول أوربا جميعها خصوما لهم فى ذلك الحين .

جعلت أستغفر لهم ولا ألعنهم ، لان القوى العالمية كانت قد تآمرت بهم آنذاك . وجعلت منهم لقمة سائغة للصهيونيين .

وكان هذا أحد الاسباب الاولى التى أعطت لثورة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ كل فعاليتها وقوتها عند الجماهير العربية ، وزاد من سير جماهير العرب مع الثورة مافعلته فى إجلاء الانجليز وجيش الاحتلال من مصر ، ثم مافعلته من تأميم قناة السويس ، ثم ماصنعته من إقامة وحدة سياسية مع مع سوريا بقيام الـ ج . ع . م . ومن قبل ماصنعته فى كسر القيود على التسليح .

وكانت تلك هى الذروة ، والغاية ، التى طالما كانت أملا وحلما لأبناء الشعوب العربية فى حاضرهم المكبل بالقيود الاستعمارية الشديدة التى أحاطهم بها ضعفهم أمام الغرب القوى المتجبر العاتى المتحكم فى إرادة الشعوب .

ولطالما دعوت الله أن يجعلنى داعية لفلسفة الحق وإنسانية العدل ، وأن

يمنحنى قوة فى غير ضعف أنصر بها الضعيف والمسكين والمظلوم .

ولعل سعد زغلول فى تعبيره عن فلسفة الحق فى قوله المشهور المأثور . .
الحق فوق القوة ، كان أقرب إلى قلوب الجماهير العربية وعقولهم وأرواحهم
من جميع الزعماء الذين عاشوا جيله ، لأنه وقف فى مجابهة القوة ، وتحدى
قوى الاستعمار العالمية ، وهذا ماربط بين ثورة ١٩١٩ ونفوس جماهير
العرب بأوثق رباط .

ولقد شاهدتنى وأنا طفل صغير أسير فى مواكب الفلاحين الوطنية فى
شوارع قريتنا الصغيرة ، لنهتف بما هتف به سعد العظيم . . الحق فوق
القوة . . ولنردد : لاحياة للاستعمار بيننا بعد اليوم .

وفى مطلع ثورة ١٩٥٢ كنت أردد مع أبناء شعبى شعار الثورة
القومى . .

ـ ارفع رأسك يا أخى فقد مضى زمن الطغيان . . وكنا بذلك نبلغ
قمة التحدى للاستعمار .

وكذلك كنت خلال ثورة عام ١٩٣٥ الوطنية فى مصر نعبر عن فلسفة
هذا التحدى حين خرجت أقود المظاهرات فى عاصمة الشرقية « الزقازيق »
التى كنت أطلب العلم فيها آنذاك ، وكنت رئيسا للجان الطلبة فيها ، وكانت
صورنا وخطبنا وآراؤنا الوطنية تنشر حينذاك فى صدر صحيفة الجهاد
المشهورة التى كان يحررها توفيق دياب ، وفى غيرها من الصحف الوطنية
فى مصر ، وكان مظهراً لذلك أن أهديت ديوانى الأول إلى شهيد مصر
عبد الحكيم الجراحى الذى ، كان أول شهداء هذه الثورة .

وحينما تحديت مع أبناء الشعب صدقى باشا صاحب الحديدية فى مصر
عام ١٩٤٦ ، خرجت فى مظاهرة مع طلاب معهد أسيوط الدينى . ولم يمض
على عملى فى الحكومة غير شهرين كدت أقع ميتا برصاص الجنود الذين

تصدوا للمظاهرة السلمية هذه فى عنف شديد ، لولا أن دفع بى رجل أسيوطى كان زميلا لنا فى الدراسة هو « حامد شريت » رحمه الله إلى منزل صغير ، وسقط برصاص الجنود طلبة كثيرون من تلاميذى ، وعطلت الدراسة فى المعهد إلى أجل غير مسمى .. وكنت أرجع فى كراهيتى لصدقى باشا رئيس الحكومة آنذاك إلى ماعرفته عنه وهو رئيس للحكومة عام ١٩٣٠ وما بعده من تصديه للحركة الوطنية فى مصر وعمله على تصفيتها ؛ وحينما خرجت مع أبناء قريتى الفلاحين البسطاء ، نحطم صناديق الانتخابات الصدقية المزيفة فى دوار العمدة ، ونقول للفلاحين : لا تذهبوا إلى مقر الانتخاب وجاءت قوه عسكرية لتضرب النار فى صدورنا ، وليقع نحو ثلاثين فلاحا صرعى بين القوه الحديدية ، وليعتقل ابن عمى المرحوم عبد اللطيف سليمان خفاجى » ، ولأنجو أنا من الاعتقال لصغر سنى .

وكنت أقول قبل أن تحدث لى مأساه عام ١٩٦٧ : لن ننتصر على عدونا الصهيونى الخبيث إلا إذا سادنا سلام اجتماعى يلف شمل الناس جميعاً فى وحدة ، وإلا إذا كنا مع الدين دائما ، ومع الحرية لكل الناس فى كل وقت وبكل أبعاد الحرية .

وهكذا كنت أحيا من طفولتى فى نطاق منطق واضح من الإيمان بالحق ، وبالحرية والشعب ، وقبل كل شىء .. من الإيمان بالله .

وكان ذلك جزء من فلسفتى فى الحياة ..

وما الجديد ؟

— ١ —

ولعل بحوثى الجديدة ، يكون القارىء العزيز على ذكر منها ، وإن كنت أستطيع أن أقول له :

١ — إن ما كتبته عن الصورة الأدبية فى القرآن الكريم ، كان بحثا جديداً ، لم يكتب فيه أحد ، ويمكن الرجوع إليه فى كتابى الحياة الأدبية فى عصر صدر الإسلام » .

٢ — إن ما كتبته عن « التيارات الكبرى فى الثقافة الإسلامية » بحث جديد أيضا .

٣ — كذلك بحوثى : الاسلام فى قيادة الإنسانية(١) — خلود الإسلام — غد الإسلام . . تعد جديدة حقا .

٤ — كذلك بحثى الذى أعده عن « شخصية أبى الفتح الإسكندرى » يعد جديدا كل الجدة .

٥ — وكذلك بحثى عن عمود الشعر العربى الذى نشرته مجلة قافلة الزيت فى عددها الصادر فى شوال سنة ١٣٩٠ هـ يعد جديداً كل الجدة . .

هذا إلى ماحققته من كتب ومصادر ، وما كتبته فى كتبى من آراء وأفكار ، مما يعد تراثا كبيراً يمكن دراسة الجديد فيه والحديث عنه فى دراسة مطولة مستقصية ، من السهل الكتابة حولها .

---

(١) من بحوثى الجديدة القديمة مثلا : بحثى العدل الإلهى ، وقد نشرته فى كتابى الإسلام فى ظلال الإصلاح والحرية » .

— ٢ —

ولا أستطيع أن أنسى أن منهجى فى دراساتى الإسلامية كان جديداً ومبتكرا، وأنى وضعت به الأساس للكثير من ألوان الدراسات والبحوث الإسلامية حقا . . وذلك لابد له من حديث طويل إن شاء الله .

وكذلك منهجى فى الدراسات الأدبية والعلمية يعد جديدا كذلك وسابقا.

ومن التحقيقات التى قمت بها مثلا بحثى عن « نقد النثر وشخصية مؤلفه المجهول » ، وعنى أخذ فكرتى كل من شوقى ضيف وبدوى طبانة فيما كتباه عن هذا الموضوع فى كتابيهما : البلاغة تطور وتاريخ ، والبيان العربى .

— ٣ —

ولقد سبق أن تحدثت عن عناصر أخرى تتصل بأمر الجديد عندى ، وهى تضاف إلى العناصر التى ذكرتها هنا .

ولم يحن الوقت بعد لكتابة بحث طويل عن الشخصية العلمية لى ، أو عن المذهب الفكرى لتراثى ، وقد يقوم بذلك فيما بعد أحد من الباحثين . .

ولا أستطيع أن أفيض فى هـــذا الجانب طويلا لأن له موضعاً آخر بإذن الله .

— ٤ —

وهذا الكتاب « قصص من الحياة » يكاد عنوانه يمثل صورة قديمة لعنوان كتاب لى هو « قصص من التاريخ » .

وكم كنت أود أن أسميه « الدقيقة الحادية والسنون » .

أو أن أسميه الساعة الخامسة والعشرون ، ولكنى وجدت كونستانتان جيورجيو ، قد سبق فكتب مسرحية بهذا العنوان الأخير .

لذلك أبقيت عنوانه المختار كما هو . . قصص من الحياة . .

الجديد فى العطاء الفكرى للمؤلف

— طالب أول إنسان بإنشاء جامعة المنصورة ومعهد المنصورة الدينى عام ١٩٤٦ .

— رأس لجنة طلاب الأزهر للدفاع عن الأقطار العربية المستعبدة منذ عام ١٩٣٦ .

— طالما طالب باسم الشعب بث روح الديمقراطية والحرية فى كل مكان .

— كما طالب بإنشاء مسجد ضخم فى ميدان التحرير يكون هو مسجد الدولة الرسمى(١) .

— وبأن يكون قصر عابدين هو المركز الرسمى لرياسة الوزارة .

— وطالب بإعادة إنشاء مصر العظمى ، وبأن يكون الدعاء فى خطبة الجمعة للشعب المصرى .

— طالب بإنشاء دار القرآن ودار الحديث فى القاهرة ، وذلك عام ١٩٦٠ .

— مثل جامعة الأزهر فى مهرجان الرافعى المنعقد فى طنطا فى ٢٥ مايو ١٩٦٩

---

(١) ه : ١٧٣ بنو خفاجة .

فهرست الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة